
موسوعة الدرر الزاهرة
في الأصالة المعاصرة
لصاحبها الأستاذ الدكتور
بسيوني محمد الخولي
المجلد الرابع
الذات الحضارية للإسلام
(الحضارة الإسلامية)
الجزء الثاني
نشر الدعوة والتنظيم
٩

موسوعة الدرر الزاهرة
فى الأصالة المعاصرة

لصاحبها الأستاذ الدكتور
بسيونى محمد الخولى

المجلد الرابع

الذات الحضارية للإسلام

(الحضارة الإسلامية)

الجزء الثانى

نشر الدعوة والتنظيم

٩

إشراف

أ / محمد عمر الفاروق

موسوعة الدرر الزاهرة في الأصالة المعاصرة

المجلد الرابع : الذات الحضارية للإسلام (الحضارة الإسلامية)

الجزء الثاني : نشر الدعوة والتنظيم

المؤلف: أ.د. بسيوني محمد الخولي

رقم الإيداع: ٩٦٥٦ / ٢٠٠٨

الترقيم الدولي: I.S.B.N. 977 – 5197 – 23 – 6

الطبعة: الأولى ٢٠٠٨

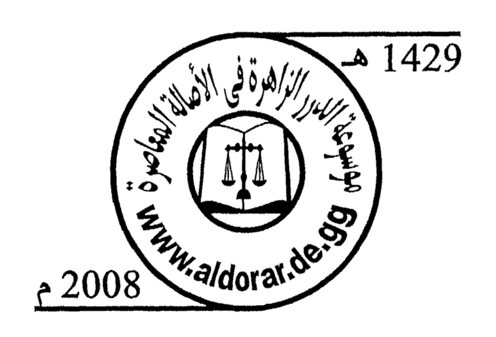
تصميم الغلاف: فنان تشكيلي / حسام حنيطر

الناشر: أصيلة للتصميم والنشر

٣٢ شارع د. محمد عوض – مكرم عبيد – مدينة نصر – القاهرة

ت : ٢٢٧٤٢٥٠٩ email: henetar@link.net

www.tashkila.net



البريد الإليكتروني

ALDORAR_ALZAHERA@YAHOO.COM

المحتـــويات

فهرس الموضوعات

الموضوع	الصفحة

الفصل الأول

الجزء الثاني

نشر الدعوة والتنظيم

تمهيـــــــد

من الجزء الأول خلصنا إلي بلورة رؤية خاصة بالإســلام عن مفهوم الحـضارة ، ونحـاول في هذا الجزء أن نتحـسس جـسم الحـضارة الإسـلامية خاليـاً مـن أي لـبس أو غمـوض أو تداخل ، وقد يتأتى ذلك من خلال الإمساك بمقومات وعناصر تلك الحـضارة ، فالمقومـات والعناصر ما هي إلا أجزاء وأبعاض ذلك الجسم والإمساك بها يعنى تحديـد معـالم الجـسم وتعين أبعاده .

ومن الأمور الجديرة بالذكر والحرية بالنظر والاعتبار في هذا الـصدد أن كـثيراً ممـن تنـاولوا بالحديث الحضارة الإسلامية يتناولونها كـتراث أو تـاريخ ويتناسـون أنهـا حاضـر وأيـضاً مستقبل وتلك هي أهم خصائص الحضارة الإسلامية التي سنأتي علـي تحليلـها ودراسـتها في الجزء السابع من هذا المجلد .

ولعلي أرى أن الحديث دائماً يـتم عـن الحـضارة الإسـلامية بوصـفها تـاريخ أو تـراث لأن الحضارة الإسلامية بالفعل أقامها وشيدها المـسلمون الأوائـل فهـل أصبحت مرتبطـة بمـن شيدوها وأقاموها، يتمم ذلك أن عطاء الحضارة الإسلامية في الوقت الراهن شـبه معـدوم ، والعطاء خير دليل علي وجود المعطى ، ولهذا يكتفي بالحديث عن الحضارة الإسلامية من خلال الماضي حيث الحضارة والعطاء .

إلا أنه ينبغي أن يفهم جيداً أن الحضارة أصول وأسس والحضارة الـتي أعطـت في الماضـي لابد أن يكون لديها القدرة والمكنة علي العطاء في الوقـت الـراهن وكـذا في المـستقبل ، وإلا فهي ليست حضارة ، ولا يعنى خفوت وفتور العوامل الديناميكيـة في الحـضارة الإسـلامية المتمثلة في العقول والأدمغة والسواعد الإسلامية توقف تلـك الحـضارة عنـد حقبـة تاريخيـة

معينة والاكتفاء منها بتاريخها الذي كان ، ولكن أصول تلك الحضارة وأسسها باقية وهي جذوة متقدة دائماً تحت الرماد في انتظار من ينفخ فيها الوهج ويشعل لهيبها .

وسوف نتحدث في هذا الجزء عن مقومات وعناصر الحضارة الإسلامية ليست كتاريخ فقط ولكن كعناصر ومقومات في حاجة دائمة إلي عقول وأفكار وسواعد أبناء الإسلام لكي يثروها ويغنوها بالعطاء والبذل حتى تستمر وتتواصل ، فتبيت تاريخاً وتصير حاضراً وتصبح مستقبلاً .

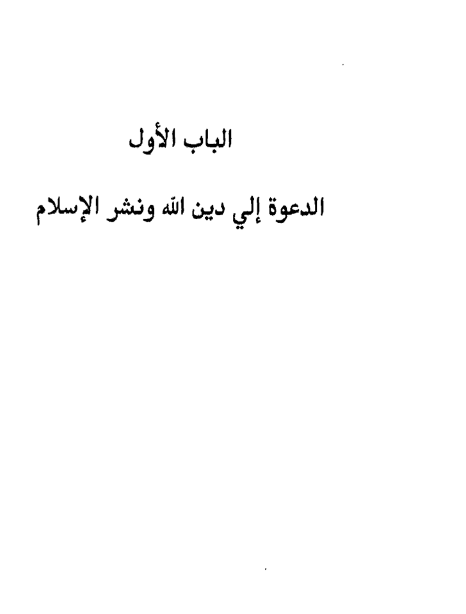
إن الحديث عن تراث الإسلام يعد حديثاً عن تاريخ الحضارة والثقافة الإسلامية أي الحديث عما قدمته الحضارة الإسلامية من أعمال وآثار وما قدمته الثقافة الإسلامية من أفكار وقيم وطروحات ، فالثقافة فكر وطرح وإفراز للعقل أما الحضارة فهي سلوك وتصرف ونتاج للتعاطي والتفاعل مع عناصر الوجود من مخلوقات وموجودات .

أما نحن فسنحاول الحديث عن أصول وأسس الحضارة الإسلامية التي أفرزت التراث والتاريخ ولديها الاستعداد الدائم لكي تنتج وتعطي في الحاضر وفي المستقبل ، الأصول والأسس الباقية الخالدة المرتبطة قلباً وقالباً بالإسلام كدين وشريعة وحياة كاملة متكاملة .

وسنقوم بتناول مقومات وعناصر الحضارة الإسلامية في ستة مقومات ، نتناول اثنين منهم في هذا الجزء ، في حين نتناول المقومات الأربعة التالية في الأجزاء التالية ، وسنقوم بتوزيع المقومين الأول والثاني في هذا الجزء على بابين على النحو التالي :

الباب الأول : الدعوة إلي دين الله ونشر الإسلام .

الباب الثاني : صياغة التنظيم .



الباب الأول

الدعوة إلي دين الله ونشر الإسلام

الدعوة إلي الإسلام ونـشره في ربـوع الأرض كانـت ولا تـزال وسـتبقى تمثـل قـوام حـضارة الإسلام وأساسها الذي قامت مـن أجلـه ، فلـيس مـن المتـصور قيـام حـضارة تحمـل اسـم الإسلام وصفته دون ارتكانها علي هذا المرتكـز الأسـاس ، فالإسـلام كـدين وكطريـق حيـاة وكشريعة ، إنما وجد ليبقى وينتشر ويتعمق في نفوس الناس وعقولهم ، ويـصبغ سـلوكاتهم ويرسم حياتهم ، ومن ثم تصبح عملية الدعوة إلي الإسلام ونشره من أهم عناصر ومقومـات الحضارة الإسلاميـة .

إضافة إلي ما تقدم فإن الدعوة إلي الإسلام ونـشره في ربـوع الـدنيا يمثـل البعـد الأخلاقـي القيمي الذي تمتعت وتفردت به الحضارة الإسلامية علـي غيرهـا مـن الحـضارات ، الـتي انتهجت جميعها تقريباً انتهاجات ماديـة صـرفه ، تخلـو في معظـم الأحيـان مـن الأبعـاد الأخلاقية القيمية ، وفي هذه الحالة تمثل عملية الدعوة إلـي الإسـلام ونـشره عمليـة لنـشر القيم والأخلاق والمثل ، وليس عملية الهدف من ورائها فتح الأمصار وضم البلدان .

إن مسألة الدعوة إلي الإسلام ونـشره تمثـل في الحـضارة الإسـلامية تراثـاً وتاريخـاً زاخـراً بالنماذج والتجارب ، بدأ منذ بزوغ فجر الرسالة ، واستمر حتى وقتنا الراهن ، وقد تقلب ذلك التاريخ بين مد ارتبط بازدهار الحـضارة الإسـلامية وإيناعهـا ، وبـين انحـسار ارتـبط كذلك باضمحلال تلك الحضارة وخفوت بريقها .

ولاينبغى أن يقتصر الأمر علي دراسة مسألة الدعوة للإسلام ونـشره كـتراث وتـاريخ فقـط، ولكن من المحتم أن يدرك أبناء الإسـلام أهميـة هـذه المـسألة في الوقـت الـراهن ، وأهميـة اعتبارها إحدى أهم عناصر ومقومات الحضارة الإسلامية في واقعنا غير المـواتي ، إذا أرادوا لهذه الحضـارة أن تحتفظ بذاتها .

وهناك ما هو ابعد من ذلك فينبغي التخطيط لمستقبل الدعوة إلي الإسلام ونشره ، كأحد أهم عناصر ومقومات الحضارة الإسلامية في الأيام القادمة ، والتي يمكن أن تعيد لهذه الحضارة رونقها وتحفظ لها ذاتيتها .

في هذا الباب سوف نتناول الدعوة إلي الإسلام ونشره ، كأحد أهم مقومات وعناصر الحضارة الإسلامية في الماضي والحاضر والمستقبل ، وذلك من خلال الفصول الخمسة التالية :

الفصل الأول : الدعوة إلي الإسلام ونشره يمثل قوام الحضارة الإسلامية .

الفصل الثاني : الدعوة إلي الإسلام ونشره يمثل البعد الأخلاقي للحضارة الإسلامية .

الفصل الثالث : الدعوة إلي الإسلام ونشره كتراث حضاري إسلامي .

الفصل الرابع : الدعوة إلي الإسلام ونشره وأهميته للحضارة الإسلامية في الوقت الراهن .

الفصل الخامس : الدعوة إلي الإسلام ونشره وأهميته لمستقبل الحضارة الإسلامية .

الفصل الأول

الدعوة إلي الإسلام ونشره

يمثل قوام الحضارة الإسلامية

علاقة الإسلام بالحضارة الإسلامية علاقة ارتباطية واحتوائيـة من نوع خاص ، فهي تشبه العمود الفقري الذي يلتف حوله الجسد ، ويمثل صلبه وقوامه الذي بدونه يصبح الجسد كماً هلامياً لا كنه له ولا ملامح ، والدعوة إلي الإسلام ونشره هي المولّد الذي يولّد في الإسلام الحركة والنشاط والقدرة علي العطاء والاستعداد الدائم والجاهزية المستمرة لذلك ، ومن ثم اعتُبرت الدعوة إلي الإسلام ونشره هي في ذات الوقت قوام الحضارة الإسلامية وإحدى مقوماتها وعناصرها الأساسية ، ويمكن زيادة إيضاح تلك العلاقة الارتباطية العضوية من خلال المباحث الخمسة التالية :

المبحث الأول : مشروعية الدعوة ونشر الإسلام فريضة .

المبحث الثاني : نشر الإسلام والدعوة إليه يمثل أحد أهم أشكال التعامل مع عناصر الوجود .

المبحث الثالث : طبيعة الإسلام الانتشار والذيوع .

المبحث الرابع : الإسلام لا انفصال فيه بين الدين والحياة .

المبحث الخامس : الحضارة الإسلامية حضارة ذات صبغة دينية .

المبحث الأول

مشروعية الدعوة ونشر الإسلام فريضة

قام الإسلام أساساً علي الدعوة والتبليغ ، فهو الدين الجامع والرسالة الخاتمة ، به أتم الله دينه وجعله الدين الذي لا يقبل الله سواه ، وقد أمر الله المسلمين بالدعوة لهذا الدين ، والعمل علي نشره بالتبليغ أو الإخبار ، وبشتى الوسائل القولية بالقول والتبيان ، والسلوكية بالفعل وتقديم القدوة والأسوة والنموذج .

أولاً : مهمة المسلمين الدعوة والتبليغ :

المسلمون علي مر العصور ، منذ انبلاج فجر الإسلام والي أن يرث الله الأرض ومن عليها ، وفي كل البقاع والأماكن ، مهمتهم تتمثل في الدعوة إلي هذا الدين وتبليغه إلي كل الناس ، وهذه الدعوة توجه إلي صنفين من البشر :

❖ **الصنف الأول :**

المسلم الموالي للإسلام ، حتى يزداد ولاؤه ، وتترسخ عقيدته ويثبت إيمانه ، وهذا الصنف يحتاج إلي نوع معين من الدعوة والتبليغ ، يتواءم مع طبيعة المسلم الموالى للإسلام.

❖ **الصنف الثاني :**

غير المسلم وغير المهتم بالإسلام ، وتهدف الدعوة الموجهة إلي هذا الصنف من البشر إلي جذب انتباه غير المهتم واسترعاء اهتمامه ، حتى يتحول إلي مهتم .

كذلك فالدعوة والتبليغ لابد أن تتم بشكل منظم ومدروس ومحكم ، ومن أناس مُعدّين ومهيئين لذلك تمام الأعداد والتهيؤ ، وباستخدام الأساليب التي تجمع بين القول اللين والموعظة الحسنة والجدال بالحسنى والسلوك المثالي وتقديم النموذج والقدوة .

قال تعالى : " فإن حآجوك فقل أسلمت وجهي لله ومن اتبعن وقل للذين أوتوا الكتاب والأميين ءأسلمتم فإن أسلموا فقد اهتدوا وإن تولوا فإنما عليك البلاغ والله بصير بالعباد "[1] ، ووفق هذه الآية الكريمة ، فالدعوة من الرسول الكريم والمسلمين من بعده موجهة إلي أصحاب الكتب السماوية وغيرهم من الأميين الذين لم ينزل فيهم كتاب ، ولم يتبعوا أية ديانة ، فإن دخلوا في الإسلام فقد اهتدوا إلي الصراط المستقيم ، وإن لم يستجيبوا فقد بُلّغوا بالدعوة وأقيمت عليهم الحجة وأمرهم إلي الله .

وقال تعالى : " وأطيعوا الله وأطيعوا الرسول واحذروا فإن توليتم فاعلموّا أنما علي رسولنا البلاغ المبين "[2]، فالبلاغ هو مهمة الرسول والدعاة إلي الإسلام من بعده .

وقال تعالى : " ما علي الرسول إلا البلاغ والله يعلم ما تبدون وما تكتمون "[3].

وقال تعالى : " وإن ما نرينك بعض الذي نعدهم أو نتوفينك فإنما عليك البلاغ وعلينا الحساب "[4].

وقال تعالى : " هذا بلاغ للناس ولينذروا به وليعلموّا أنما هو إله واحد وليذكر أولو الألباب "[5]

وقال تعالى : " وقال الذين أشركوا لو شآء الله ما عبدنا من دونه من شئ نحن ولآ ءاباؤنا ولا حرمنا من دونه من شئ كذلك فعل الذين من قبلهم فهل علي الرسل إلا البلاغ المبين "[6].

وقال تعالى : " فإن تولوا فإنما عليك البلاغ المبين "[7].

---

[1]. سورة آل عمران ، ٢٠ .
[2]. سورة المائدة ، ٩٢ .
[3]. سورة المائدة ، ٩٩ .
[4]. سورة الرعد ، ٤٠ .
[5]. سورة إبراهيم ، ٥٢ .
[6]. سورة النحل ، ٣٥ .
[7]. سورة النحل ، ٨٢ .

وقال تعالى : " ادع إلي سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة وجادلهم بـالتي هـي أحـسن إن ربك هو أعـلم بمن ضل عن سبيله وهو أعـلم بالمهتـدين "[1] ، توضح هذه الآية الكريمة أسلوب الدعوة الذي تدرج في منطلقات متتابعة ، بدأت بالحكمة أي الرشد والسداد والعلم ، ثم الموعظة الحسنة دون تشنج أو تعالٍ أو صخب ، وإذا وصـل الأمـر إلـي حـد الجـدال ومطارحة الحجة بالحجة ، كانت بالأسلوب الهـادئ الحكـيم القـويم ، وهـذا هـو سـبيل الدعوة.

وقال تعالى : " اذهبآ إلي فرعون إنه طغى ه فقولا له قولاً ليناً لعله يتـذكر أو يخـشى "[2] ، وتبين هذه الآية الكريمة إنه حتى في دعوة وإبلاغ أطغى الطغـاة لابـد مـن اللـين والرقـة ، لأن اللين ما كان في شئ إلا زانه وما نزع من شئ إلا شانه .

وقال تعالى : " إن في هذا لبلاغاً لقوم عابدين "[3] ، وفي هذه الآيـة الكريمـة إيـضاح لمـا سـبق وقدمنا من أن الدعوة توجه إلي المؤمن لتكون له زيادة في إيمانه وتثبيتاً له عليه .

وقال تعالى : " لكل أمة جعلنا منسكاً هم ناسكوه فلا ينازعنك في الأمر وادع إلي ربـك إنـك لعلي هدى مستقيم "[4] ، وهذه الدعوة موجهة من الحق تبارك وتعالى إلـي رسـوله الكـريم ، ثم إلي كل مسلم تتهيأ له مقدرات ومكنات الدعوة إلي دين الله .

وقال تعالى : " قل أطيعوا الله وأطيعوا الرسول فـإن تولـوا فإنمـا عليـه ماحّمـل وعلـيكم مـا حملتم وإن تطيعوه تهتدوا وما علي الرسول إلا البلاغ المبين "[5].

---

1. سورة النحل ، ١٢٥ .
2. سورة طه ، ٤٣ و ٤٤ .
3. سورة الأنبياء ، ١٠٦ .
4. سورة الحج ، ٦٧ .
5. سورة النور ، ٥٤ .

وقال تعالى : " ولايصدنك عن ءايات الله بعد إذ أُنزلت إليك وادع إلي ربك ولاتكونن من المشركين "[1].

وقال تعالى : " وإن تكذبوا فقد كذب أمم من قبلكم وما علي الرسول إلا البلاغ المبين "[2].

وقال تعالى : " قالوا ربنا يعلم إنآ إليكم لمرسلون ‌ۛ وما علينآ إلا البلاغ المبين "[3].

وقال تعالى : " فلذلك فادع واستقم كمآ أمرت ولا تتبع أهوآءهم وقل ءامنت بما أنزل الله من كتاب وأمرت لأعدل بينكم الله ربنا وربكم لنآ أعمالنا ولكم أعمالكم لا حجة بيننا وبينكم الله يجمع بيننا وإليه المصير "[4].

وقال تعالى : " فإن أعرضوا فمآ أرسلناك عليهم حفيظاً إن عليك إلا البلاغ وإنآ إذآ أذقنا الإنسان منا رحمة فرح بها وإن تصبهم سيئة بما قدمت أيديهم فإن الإنسان كفور "[5].

وقال تعالى : " إلا بلاغاً من الله ورسالاته ومن يعص الله ورسوله فإن له نار جهنم خالدين فيها أبداً "[6].

وقال تعالى : " ليعلم أن قد أبلغوا رسالات ربهم وأحاط بما لديهم وأحصى كل شئ عدداً "[7].

---

[1]. سورة القصص ، ٨٧ .
[2]. سورة العنكبوت ، ١٨ .
[3]. سورة يس ، ١٦ و ١٧ .
[4]. سورة الشورى ، ١٥ .
[5]. سورة الشورى ، ٤٨ .
[6]. سورة الجن ، ٢٣ .
[7]. سورة الجن ، ٢٨ .

ثانياً : الإيمان أمره إلي الله :

كما سبق وأوضحنا ، تتمثل مهمة الرسل ومن تبعهم من عبـاد الله الصالحين ، في الدعوة إلي دين الله ، وتبليغ رسالاته إلي جميع خلـق الله ، ويبقى الإيمان أمره إلي الله ، إن علم من المبلّغين رغبة في الإيمان والهداية ، هـداهم إلـي صـراطه المستقيم ، وإن استحبوا الكفر علي الإيمان ختم علي قلوبهم وتركهم في غيهم يعمهون .

قال تعالى :" فلعلك باخع نفسك عليّ ءاثارهم إن لم يؤمنوا بهذا الحديث أسفاً "[1].

وقال تعالى :" لعلك باخع نفسك ألا يكونوا مؤمنين "[2].

وقال تعالى :" أفمن زُيّن له سوّء عملـه فرءاه حسنـاً فإن الله يضل من يشآء ويهدى من يشآء فلا تذهب نفسك عليهم حسرات إن الله عليم بما يصنعـون "[3].

[1]. سورة الكهف ، ٦ .
[2]. سورة الشعراء ، ٣ .
[3]. سورة فاطر ، ٨ .

المبحث الثاني

نشر الإسلام والدعوة إليه يمثل أحد أهم أشكال التعامل مع عناصر الوجود

سبق وأوضحنا أن الحضارة هي بمثابة تعامل وتعاطي وتفاعل مع عناصر الوجود من مخلوقات وموجودات ، ولعل الدعوة إلي دين الله الذي هو الإسلام هي أحد أهم أشكال ذلك التعامل ، ويمكن إيضاح ذلك الارتباط ، وتبيان تلك العلاقة من خلال الآتي :

أولاً : كل المخلوقات تطيع الله وتسبح له :

إن هذا الكون الفسيح الذي لا يعلم نهايته إلا خالقه سبحانه ، قد أُوجد بالكاف والنون أي بفعل الأمر كُن ، فكان علي ما أراده ذلك الخالق العظيم ، وظلت جزئيات ومفردات ذلك الكون علي طاعتها وإذعانها وانصياعها منذ وجودها ، ومن ثم فقد جُبلت تلك المخلوقات والموجودات علي الطاعة ، وفُطرت علي الإيمان والاستسلام للخالق .

قال تعالى :" ويسبح الرعد بحمده والملآئكة من خيفته ويرسل الصواعق فيصيب بها من يشآء وهم يجادلون في الله وهو شديد المحال "[1].

وقال تعالى :" تسبح له السموات السبع والأرض ومن فيهن وإن من شئ إلا يسبح بحمده ولكن لا تفقهون تسبيحهم إنه كان حليماً غفوراً "[2].

وقال تعالى :" وله من في السموات والأرض ومن عنده لا يستكبرون عن عبادته ولا يستحسرون ◦ يسبحون الليل والنهار "[3].

---

[1]. سورة الرعد ، ١٣ .
[2]. سورة الإسراء ، ٤٤ .
[3]. سورة الأنبياء ، ١٩ و ٢٠ .

وقال تعالى : " ففهمناها سليمان وكلاً ءاتينا حكماً وعلماً وسخرنا مع داود الجبال يسبحن والطير وكنا فاعلين "[1].

وقال تعالى : " ألم تر أن الله يسبح له من في السموات والأرض والطير صآفات كل قد علم صلاته وتسبيحه والله عليم بما يفعلون "[2].

وقال تعالى : " إنا سخرنا الجبال معه يسبحن بالعشى والإشراق ۝ والطير محشورة كل له أواب "[3].

وقال تعالى : " سبح لله ما في السموات والأرض وهو العزيز الحكيم "[4].

وقال تعالى : " سبح لله ما في السموات وما في الأرض وهو العزيز الحكيم "[5].

وقال تعالى : " يسبح له ما في السموات والأرض وهو العزيز الحكيم "[6].

وقال تعالى : " ثم استوىّ إلي السمآء وهي دخان فقال لها وللأرض ائتيا طوعاً أو كرهاً قالتآ أتينا طآئعين "[7].

وقال تعالى : " يسبح لله ما في السموات وما في الأرض الملك القدوس العزيز الحكيم "[8].

وقال تعالى : " يسبح لله ما في السموات وما في الأرض له الملك وله الحمد وهو علي كل شئ قدير "[9].

---

[1]. سورة الأنبياء ، ٧٩ .
[2]. سورة النور ، ٤١ .
[3]. سورة ص ، ١٨ و ١٩ .
[4]. سورة الحديد ، ١ .
[5]. سورة الحشر ، ١ .
[6]. سورة الحشر ، ٢٤ .
[7]. سورة فصلت ، ١١ .
[8]. سورة الجمعة ، ١ .
[9]. سورة التغابن ، ١ .

ثانياً : نشر الإسلام والدعوة إليه تعنى الاندماج في منظومة الكون :

كل ما في الكون من مخلوقات وموجودات يسبح الله ويعبده ، وعليه فإن الدعوة إلي الإسلام ونشره في ربوع الأرض ، يعنى الاندماج في منظومة الكون ، التي قوامها تسبيح الله ، ودأبها عبادته وطاعته ، وتلك الدعوة إن هي إلا استئناس وتفاعل وتناغم مع مكونات تلك المنظومة ، حيث يصبح القاسم المشترك للجميع هو الإيمان بالله وطاعته ، وهنا يحدث الوفاق والتناغم والتآلف بين الإنسان المسلم والطبيعة من حوله .

ثالثاً : الإنسان المخاطب بالدعوة هو أحد أهم عناصر الوجود :

الإسلام جاء ليخاطب عقل الإنسان وفكره وبصيرته ، والإنسان المخاطب بالإسلام من خلال الدعوة هو أحد أهم عناصر الوجود ، فهو العنصر الأفضل الذي سخرت له العناصر الأخرى، وتميز عليها بالعقل والتفكير ، وتفرد باحتفاظه بحرية اختيار التكليف من عدمه .

المبحث الثالث

طبيعة الإسلام الانتشار والذيوع

الدين الإسلامي جاء لينتشر بين الناس ، ويعم كافة الأرجاء لا أن يقتصر علي طائفة من الناس، فهو موجه إلي كل الخلائق وكافة الأجناس ، وتجد هذه الطبيعة الخاصة لهذا الدين أصولها في الآتي :

أولاً : إن الإسلام هو الدين الخاتم المتمم للرسالات السماوية :

اخبر الحق تبارك وتعالى أن الإسلام هو آخر الديانات ومتممها ، ومن ثم فقد أشتمل علي كل ما تكتمل به الحياة ، ولا يعوزها شرائع أخرى لمعالجة نواقصها ، وفي ذلك جاء قول الحق تبارك وتعالى : " إن الدين عند الله الإسلام وما اختلف الذين أوتوا الكتاب إلا من بعد ما جآءهم العلم بغياً بينهم ومن يكفر بآيات الله فإن الله سريع الحساب "[1].

وقال تعالى : " أفغير دين الله يبغون وله أسلم من في السموات والأرض طوعاً وكرهاً وإليه يرجعون "[2].

وقال تعالى : " ومن يبتغ غير الإسلام ديناً فلن يقبل منه وهو في الأخرة من الخاسرين "[3].

وقال تعالى : " حرمت عليكم الميتة والدم ولحم الخنزير وما أهل لغير الله به والمنخنقة والموقوذة والمتردية والنطيحة ومآ أكل السبع إلا ما ذكيتم وما ذبح علي النصب وأن تستقسموا بالأزلام ذلكم فسق اليوم يأس الذين كفروا من دينكم فلا تخشوهم واخشون اليوم

[1]. سورة آل عمران ، ١٩ .
[2]. سورة آل عمران ، ٨٣ .
[3]. سورة آل عمران ، ٨٥ .

أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتي ورضيت لكم الإسلام ديناً فمن اضطر في مخمصة غير متجانف لإثم فإن الله غفور رحيم "[1] .

ثانياً : الإسلام جاء لصلاح الكون :

أما الأصل الثاني لطبيعة الإسلام كدين يتسم بالانتشار والذيوع ، فيكمن في حقيقة أن هذا الدين إنما جاء لإصلاح وصلاح الكون ، وبالتالي فانتشاره يعد ضرورة بل وحتمية من أجل إنفاذ أمر الخالق العظيم الذي اختتم رسالاته بهذا الدين القيم .

[1]. سورة المائدة ، ٣ .

المبحث الرابع

الإسلام لا انفصال فيه بين الدين والحياة

الإسلام دين وحياة في وقت واحد ، فهو نسك وعبادة ، وهو شرع وتشريع لكل الأمور والشئون ، وهو كذلك نظام اجتماعي متكامل ، فالحياة تنتظم بالإسلام الذي هو في ذات الوقت نسك وعبادة .

والعلاقة ارتباطيه وتبادلية بين الأمرين : فمن يعبد الله بحق وإخلاص ، فهو مؤمن صادق في إيمانه ، وهو في ذات الوقت يقيم حياته ، ويسير معاملاته مع أقرانه من أفراد المجتمع ، وفق شرع الله ، وحسب حدوده وضوابطه .

ومن يعش في وئام وتفاهم وتراحم وتعاطف مع أفراد مجتمعه ، تجده يقدّر الله حق قدره ، ويعرفه حق المعرفة ، ويعبده كأنه يراه ، فمن يحسن إيمانه ويتعمق ، تحسن كذلك علاقاته بأفراد مجتمعه وتتوطد .

ولقد انتقلت هذه العلاقة الارتباطية التبادلية بين سلوك المسلم وحياته ، إلي العلاقة بين السلوك الإسلامي عموماً وبناء الحضارة ، فالإسلام يأمر بل ويحض علي إعمار الكون، والإعمار لا يتم إلا بالتعامل مع عناصر الوجود ، ولا ينتج إلا الحضارة .

والإسلام لا يطلب الإعمار فقط ، بل يرغّب في الإعمار بمستويات راقية ، حتى يوفر لأفراد المجتمع المسلم الحياة الطيبة ، التي تليق بآدمية الإنسان ، وفي ذلك جاء قول الحق تبارك وتعالى: " من عمل صالحاً من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فلنحيينه حياة طيبة ولنجزينهم أجرهم بأحسن ما كانوا يعملون "[1].

---

[1]. سورة النحل ، ٩٧ .

والحياة الطيبة وما يصحبها من حضارة مزدهرة ومدنية يانعة في المجتمع المسلم ليست غاية في حد ذاتها ، ولكنها وسيلة لغاية نهائية هي عبادة الله سبحانه وتعالى ، التي من أجلها خلق الخلق وأوجد الكون وأمر بالإعمار وحث عليه ، قال تعالى : " وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون "[1].

مما تقدم يتضح أن الإسلام هو البداية وهو الغاية والنهاية في ذات الوقت ، فالدعوة إلي الإسلام والعمل علي نشره تقودان إلي ازدهار الحياة وقيام الحضارة الزاهرة والمدنيات العامرة ، وهذه الحضارات والمدنيات هدفها توطيد أركان الإسلام وعبادة الله الواحد الأحد .

[1]. سورة الذاريات ، ٥٦ .

المبحث الخامس

الحضارة الإسلامية حضارة ذات صبغة دينية

أكدنا في أكثر من موضع مما تقدم علي أن الإسلام يلعب دوراً مهماً في بناء الحضارة الإسلامية فهو قوامها ، وهو نقطة البداية فيها ، وهو أخيراً غايتها ومنتهاها ، فالحضارة إذن تبدأ بالإسلام ، فتنهل منه ويمتّن أركانها ، ثم تنتهي إليه مرة أخرى ، حيث تعمل علي نشره وتوطيد أسسه في مختلف الأرجاء ، وهكذا تبدو العلاقة التبادلية بين الإسلام والحضارة – والتي سبق تناولها بالتفصيل – ومن هذه العلاقة التبادلية يكون من السهولة بمكان استخلاص ما مؤداه أن الحضارة الإسلامية هي حضارة ذات صبغة دينية ، حيث يلعب فيها الدين الدور الأساس شكلاً وموضوعاً .

فالحضارة التي يدخل الإسلام في تشكيلها إلي أن يصير قوامها ، لابد أن تكون حضارة ذات صبغة دينية ، فالدين أساسها ومنطلقها في حركتها نحو بناء صرحها الذاتي ، ويتخلل ثناياها ومفرداتها ، لينظم كافة أجزائها ، ويعم مكوناتها ، ليضفي عليها مسحته وصبغته ، فيجمع بين جوهرها ومضمونها من ناحية ، وشكلها وهيئتها من ناحية أخرى .

والإسلام هو روح الحضارة وبدونه تتحول إلي معنى بدون روح وشكل بدون جوهر ، وذلك هو شأن الحضارات ذات الطبيعة المادية الصرفة ، التي تخلو في المعتاد من العوامل والأبعاد الدينية الأخلاقية ، وتلقى بكل ثقلها علي المقومات والعناصر المادية ، فتتفوق فيها وربما تحرز فيها قصب السبق ومع ذلك التفوق والسبق ، تنحسر في المقابل المقومات والعناصر ذات الطابع الأخلاقي ، وهذا عينه ما يحدث في الوقت الراهن ونراه رأي العين .

الفصل الثاني

الدعوة إلي الإسلام ونشره يمثل البعد الأخلاقي للحضارة الإسلامية

من أهم خصيّات الحضارة الإسلامية أنها حضارة ذات صبغة أخلاقية ، وتكتسب تلك الحضارة صبغتها تلك من تمركزها حول نشر الإسلام والدعوة إليه ، ويبرز البعد الأخلاقي للحضارة الإسلامية من خلال آثاره ونتائجه التي يضفيها علي أدوات التعامل مع عناصر الوجود ، ومقومات وعناصر تلك الحضارة ، وكذا أهدافها وغاياتها ، ويتضح ذلك من خلال المباحث الثلاثة التالية :

المبحث الأول : البعد الأخلاقي يغلّف أدوات التعامل مع عناصر الوجود .

المبحث الثاني : البعد الأخلاقي يطبع مقومات وعناصر الحضارة .

المبحث الثالث : البعد الأخلاقي يصبغ أهداف وغايات الحضارة .

المبحث الأول

البعد الأخلاقي يغلّف أدوات التعامل مع عناصر الوجود

سبق وأوضحنا أن الحضارة في أساسها هي بمثابة تعامل يقوم به الإنسان مع عناصر الوجود من مخلوقات وموجودات ، وذلك التعامل تحكمه معايير وضوابط ، وينطلق من أسس وقواعد، ويبتغي أهدافاً وغايات ، وهذا هو شأن الحضارة بشكل عام بغض الطرف عن هويتها وتوجهاتها ، وإذا كانت أدوات التعامل وما تنطلق منه من أسس وقواعد هي أساس الحضارة ، فمعنى ذلك أن كل حضارة أقامها الإنسان في كافة الأماكن والأزمان تصطبغ بصبغة القواعد والأسس التي تنطلق منها أدوات التعامل وتعتبر أساساً لها .

فمن الحضارات الإنسانية التي شهدتها البشرية ما أنطلق في أدوات تعامله مع عناصر الوجود من منطلقات مادية صرفة ، وظل كذلك إلي أن زال أو توارثته أجيال أخرى ، ومنها ما أنطلق من منطلقات أخلاقية دينية صرفة ، وظل كذلك حتى أذن الله بتغيير حالها ، ومنها ما مزج بين النوعين من المنطلقات في مزيج رائع من التناسق والتآلف بين الشق الروحي الأخلاقي والشق المادي الحياتي .

وقد قُدّر للبعد الأخلاقي أن يلعب دوراً مهماً في التأثير علي أدوات التعامل مع عناصر الوجود ، فيما يتعلق بالحضارة الإسلامية ، وذلك من خلال التركيز علي نشر الإسلام والدعوة إليه داخل المجتمعات الإسلامية وخارجها .

وقد نتج عن سيادة البعد الأخلاقي علي أدوات التعامل مع عناصر الوجود فيما يتعلق بالحضارة الإسلامية ، أن سهلت عمليات الاندماج والتفاعل بين المسلم باني الحضارة ومشيد صروحها وبين عناصر الوجود من مخلوقات وموجودات سخرها الله لخدمة الإنسان وتسيير أموره .

وظل المسلم علي مر التاريخ منذ ظهور الإسلام ، وهـو يتعامـل مـع عناصـر الوجـود بـنهج أخلاقي ، يتفق مع سنن الله في الحياة وناموسه في الكون ، فجاءت حضارته نقية من أيـة تجاوزات خالصة من أية إفساد أو إساءة لتلك العناصر ، وهكذا جاءت الحضارة الإسلامية حضارة أخلاقية فيما يتعلق بعلاقتها بعناصر الوجود من مخلوقات الله وموجوداته .

المبحث الثاني

البعد الأخلاقي يطبع مقومات وعناصر الحضارة

إضافة إلي المنطلقات التي تنطلق منها أدوات التعامل مع عناصر الوجود الخاصة بالحضارات ، ثمة المقومات والعناصر التي تنتصب عليها الحضارات ، وتلك المقومات والعناصر هي النشاطات التي تبرع فيها الحضارات ، وتقدم بخصوصها إسهامات وإنجازات ، تتميز بها وتنسب إليها ، وقد عهدت الإنسانية حضارات ارتكزت علي مقومات وعناصر مادية مبهرة، مثل التشييد والبناء وركوب البحر والاستفادة من الرياح والشمس وإجراء الأنهار والمجاري المائية ، وما يرتبط بذلك من ماديات الحياة ، كما شهدت الإنسانية أيضاً حضارات أرتكنت علي مقومات وعناصر أخلاقية مثالية تتعلق بالقيم والفضائل والمبادئ والمثل ، ولم تصب حظاً وافراً من المقومات والعناصر المادية .

وبين الفصيلين المتقدمين من الحضارات عايشت الإنسانية حضارات جمعت بين المقومات والعناصر المادية والمقومات والعناصر الأخلاقية الروحية ، وبرعت في إقامة حالة من التوافق والتآلف بين النقيضين المادة والروح ، وبالرغم من قلة نماذج الحضارات التي انتهجت نهج الوسطية والاعتدال بين المادة والروح إلاّ أنها كانت هي الحضارات التي نالت ولا تزال تقدير الباحثين والمفكرين .

وقد كانت الحضارة الإسلامية واحدة من أهم تلك الحضارات التي وافقت وآلفت بين المادة والروح ، وانتهجت نهجاً وسطاً بين النقيضين ، فقد كانت الحضارة الإسلام رائدة وسباقة في الدعوة إلي إعمار الكون وازدهار المدنية وتوفير الحياة الطيبة بمعايير ومقاييس أخلاقية مثالية ، وكانت في ذات الوقت تدعو إلي نشر الإسلام والدعوة إليه وعبادة الله الواحد

الأحد ، ومن ثم فقد عمدت الحضارة الإسلام إلي تقديم نموذج من الحضارات امتزجت فيه المادة بالروح، وكان نموذجاً فريداً لم يضاهيه نموذج حتى الآن .

وفي ذلك ورد القول العظيم من الخالق الحكيم : " وكذلك جعلناكم أمة وسطاً لتكونوا شهدآء علي الناس ويكون الرسول عليكم شهيداً وما جعلنا القبلة التي كنت عليهآ إلاّ لنعلم من يتبع الرسول ممن ينقلب علي عقبيه وإن كانت لكبيرة إلاّ علي الذين هدى الله وما كان الله ليضيع إيمانكم إن الله بالناس لرءوف رحيم "[1].

وقال تعالى :" ولتكن منكم أمة يدعون إلي الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر وأولئك هم المفلحون "[2].

ومعنى هذه الآية الكريمة يجب أن تكونوا كلكم أمة من صفات أفرادها أنهم يدعون إلي الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ، وهذه الأمة العظيمة التي نالت رضاء ربها ورضوانه في الدنيا والآخرة .

وقال تعالى :" كنتم خير أمة أخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتؤمنون بالله ولو ءامن أهل الكتاب لكان خيراً لهم منهم المؤمنون وأكثرهم الفاسقون "[3].

---

[1]. سورة البقرة ، ١٤٣ .
[2]. سورة آل عمران ، ١٠٤ .
[3]. سورة آل عمران ، ١١٠ .

المبحث الثالث

البعد الأخلاقي يصبغ أهداف وغايات الحضارة

يواصل البعد الأخلاقي تأثيره علي مفردات ومكونات الحضارة الإسلامية بدءً من منطلقات عمليات التعامل مع عناصر الوجود ، ثم مقومات وعناصر الحضارة ، وأخيراً أهداف وغايات الحضارة ، ومن المؤكد أن كافة الحضارات التي تواردت علي هذه الأرض قد حددت لنفسها هدفاً وغاية ، وقد توزعت تلك الأهداف والغايات بين أهداف لا تتجاوز إقامة المدنيات وإنشاء العمران وإدخال وسائل الراحة والترف علي أصحاب الحضارة ، وبين الرغبة في تحقيق أهداف التوسع والسيطرة وإعمال وسائل القهر علي الآخرين من خلال استغلال وسائل الحضارة وأدوات التقدم المادي والتقني .

إلاّ أن الحضارة الإسلامية اختارت نمطاً ثالثاً مختلفاً عن النمطين المتقدمين ، فقد تمثلت أهداف وغايات الحضارة الإسلامية في نوعين من الأهداف :

أولاً : الأهداف الوسيطة أو المرحلية :

وتمثلت تلك الأهداف في إعمار الأرض وإقامة المدنيات لتحقيق الحياة الطيبة لأبناء المجتمع الإسلامي .

ثانياً : الأهداف النهائية :

وتمثلت تلك الأهداف في التمكين لدين الله ونشره والدعوة إلي عبادة الله الواحد الأحد في مشارق الأرض ومغاربها .

الفصل الثالث

الدعوة إلي الإسلام ونشره

كتراث حضاري إسلامي

في هذا الفصل نعّرج علي دراسة أهمية ذلك العنصر في تاريخ الحضارة الإسلامية ، أو بعبارة أكثر دقة تاريخ الدعوة إلي الإسلام ونشره ، بوصفه عنصر من عناصر الحضارة الإسلامية ومقوم من مقوماتها .

فقد سبق وأكدنا علي أن الدعوة إلي الإسلام ونشره هي إحدى أهم مقومات وعناصر الحضارة الإسلامية ، وألمحنا أيضاً إلي أن الحضارة الإسلامية تُدرس في المعتاد ويتم تناولها كتاريخ وتراث يرتبط بماضي الإسلام ولا يتعرض لحاضره أو يمتد لمستقبله .

وقد تعرضت دراسات وأدبيات عديدة لتاريخ الدعوة إلي الإسلام وتابعت حركات نشره وعمليات انتشاره ، ولكن ليس كعنصر أو مقوم من عناصر ومقومات الحضارة الإسلامية بل كتاريخ لانتشار الإسلام وانتشار حضارته ، ولا نعنى هنا بدراسة الدعوة إلي الإسلام ونشره كعنصر من عناصر الحضارة الإسلامية دراسة تفاصيل ودقائق فتح المسلمين للبلدان والأمصار، ونشر الإسلام في كافة البقاع والأرجاء ، ولكن ينصب جل اهتمامنا علي إبراز أهمية نشر الإسلام والدعوة إليه كعنصر من عناصر الحضارة الإسلامية من خلال تكثيف الضوء علي جملة من المؤشرات التي تؤشر إلي تفرد وتميز هذا العنصر في تاريخ الحضارة الإسلامية ، ويتضح ذلك من خلال المباحث الأربعة التالية :

المبحث الأول : سرعة انتشار الإسلام .

المبحث الثاني : الانتشار في كافة الاتجاهات .

المبحث الثالث : دخول أجناس مختلفة إلي الإسلام .

المبحث الرابع : الإسلام ينتشر بحضارتـه وثقافته .

المبحث الأول

سرعة انتشار الإسلام

تساءل الكثير من الباحثين والمؤرخين وبصفة خاصة المستشرقين الذين لم يقدر لهم تملك الملكة والحس اللذين يمكنانهم من الغوص وراء الأسباب التي أدت إلي سرعة انتشار الإسلام علي رقعة شاسعة من المعمورة في فترة وجيزة ، ولا يزال هذا السؤال من الاستفسارات الملحة التي تبحث عن إجابة شافية تفض الاشتباك والتداخل واللبس الذي ينتج عنه في كثير من الأحيان إساءة الفهم وإيقاع الضير بالإسلام وأهله .

فماذا يملك ذلك الدين الجديد من مكنات ومقدرات جعلته ينتشر بهذه السرعة المذهلة ؟ وماذا لديه من قوة جذابة مستقطبة خلبت العقول وبهرت القلوب واستوقفت الأنظار ؟ .

بالفعل كان الإسلام في الزمن والظروف التي بزغ فيها قوة مؤثرة بشكل خارج علي ما هو مألوف ، فقد تملك ذلك الدين العديد من المؤهلات والقدرات الخارقة التي اخترقت حواجز الجنس واللغة واستهدفت الألباب والأفئدة ، فانسابت إليها في سلاسة ورشاقة ، وتملكتها في تمكن وإحكام ، ولعله من المجدي والضروري معاً تناول جملة الظروف ، وكذا القدرات والمؤهلات التي حدت بالإسلام إلي الانتشار السريع بشكل ملفت للأنظار ، وذلك فيما يلي :

أولاً : التفرغ للدعوة ونشر الإسلام :

منذ الوهلة الأولى لبزوغه قيض الله لهذا الدين رجالاً صدقوا ما عاهدوا الله عليه ، كان كل همهم نشر هذا الدين والدعوة إليه وتبليغه إلي بنى البشر ، لأنه يحمل السمو والترقي بالروح والنفس ، وعلي غير المعهود في ذلك الزمان ، شهدت الفترة التي انتشر فيها الإسلام ووطد أركانه ظاهرة لم تشهدها أو تعايشها أية ديانة أو عقيدة أخرى ، وتمثلت

هذه الظاهرة في قيام مجموعة من الرجال تميزوا بنقاء العقيدة وتفردوا بصفاء الفكر وحسن النوايا وصدق الهدف والغاية ، وكان الشغل الشاغل لهذه الثلة من الأفذاذ هو الإسلام كدين وعقيدة وفكر وحياة وحتى ما بعد الحياة ، لم يكن لديهم ما يشغلهم سوى نشر هذا الدين السامي ، وتبليغه ليصل بسموه ورقيه إلي جميع الناس ، فيسمو بأنفسهم ويرقى بأرواحهم إلي الذرى ، وهذا الهدف النبيل عند الغوص وراء معانيه ومضامينه نجده ليس حباً في نشر الإسلام لذات الإسلام ، ولكن كذلك رغبة في إفادة الناس ، وطلباً لرفعتهم والترقي بأنفسهم وأرواحهم ، وهذا هو حب الخير الذي تعلمه المسلمون الأوائل من الإسلام وانبروا لتوصيله إلي العالمين ، لقد كان هدف الأوائل من نشر الإسلام تحرير الناس من الجهل وظلمة الاستعباد ، استعباد النفس للنفس ، واستعباد الجهل والتخلف العقيدي والفكري للنفس أيضاً .

لقد كان الصدق والإخلاص هما السبب الأول وربما الأخير الذي وقف وراء النجاحات التي حققها المسلمون الأوائل في نشر الإسلام ، وينبعث من هذين السببين حب الخير لبنى الإنسان .

لقد سما نشر الإسلام وحب الناس لدى المسلمين الأوائل فوق أي شئ أخر ، فوق متطلبات وحاجات الحياة ، فوق رغبات النفس ومشبعات الأهواء ، فوق الخلافات والمنافسات التي كانت نادراً ما تحدث وإذا حدثت فهي من أجل البحث عن أمثل الطرق والوسائل لتحقيق الهدفين المتقدمين .

وكانت ثمار ذلك يانعة مزدهرة ، وكان الجزاء من جنس العمل ، فانتشر الدين الجديد ومعه انتشرت الحضارة والمدنية والحياة الطيبة ، ودخل الناس من جميع الأجناس والأعراق في دين الله أفواجاً ، وتنسم الجميع أريج الحرية وعبير الحب والتآخي والتعاطف ، وشعر الجميع بأنهم اخوة لأب وأم هو الإسلام .

وفي أوائل المسلمين الذين فرّغوا أنفسهم وجندوها للدعوة إلي دين الله ، ونشر الإسلام في بقاع الأرض ، وأحبوا الناس ، وسعوا في الخير لهم ، جاء قول الحق تبارك وتعالى : " والسابقون الأولون من المهاجرين والأنصار والذين اتبعوهم بإحسان رضى الله عنهم ورضوا عنه وأعد لهم جنات تجرى تحتها الأنهار خالدين فيها أبداً ذلك الفوز العظيم "[1] .

وجاء قوله تبارك وتعالى: " من المؤمنين رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه فمنهم من قضى نحبه ومنهم من ينتظر وما بدّلوا تبديلاً "[2] .

ثانياً : يأس الناس وهوانهم :

كان الناس يعيشون في المجتمعات التي وجدت حال بزوغ الإسلام داخل وخارج شبه الجزيرة العربية في حالة من البؤس والجهل والتخلف ، ناهيك عن امتهان آدمية الإنسان وانتهاك حرماته كبشر ، وكان الشعور السائد لدى أفراد تلك المجتمعات من جراء تلك الحياة وممارساتها القاهرة المدمرة هو اليأس والهوان والسخط علي تلك الحياة .

فقد كان المجتمع في أغلب الأحوال ينقسم إلي طبقتين : الأولى هي طبقة السادة الذين يملكون كل شئ ، ويسيرون الحياة وفق أهوائهم ومآربهم ، والثانية هي طبقة العبيد المملوكين المقهورين ، وهم بمثابة أحد ممتلكات أفراد الطبقة الأولى ، لا وزن لهم ولا شأن ، كل حياتهم لمصلحة السادة الكبار .

وكان أفراد الطبقة الأدنى يعيشون علي أمل الخلاص من هذه الوضعية المزرية ، وعندما جاء الإسلام ليعلن عن مبدأه الاجتماعي الشهير الذي مفاده المساواة بين الناس ، ولا فضل لفرد علي آخر إلاّ بالتقوى والعمل الصالح ، وأن كافة البشر هم عباد لله ، لقي هذا المبدأ

[1]. سورة التوبة ، ١٠٠ .
[2]. سورة الأحزاب ، ٢٣ .

في قلوب هؤلاء المقهورين هـواً وتوقـاً ، جعلـهم يُقبلـون علـي الإسـلام للوهلـة الأولى كـأداة للخـلاص مـن حيـاتهم الكريهـة والـشعور بـآدميتهم المفقـودة ، ثـم بعـد ذلـك ذاقـوا حلاوة الإيمان .

لقد استحوذ الإسلام علي اهتمام الطبقة الأدنى في المجتمع ، ومـن ثـم انتـشر سريعاً بـين أفرادها ، حيث استشعر هؤلاء أن هذا الدين هو ناصرهم ومخلصهم مما هم فيه مـن اليـأس والهوان ، وسيتمكن من إعادة التوازن إلي نصابه ، وترجيح كفتهم الـتي كانـت دائمـاً في حالة بخس وغبن ، وعلي الجهة المقابلة استشعر أفراد الطبقة الأعلى أن سيادتهم مهـددة بالانهيار ، وأنه في حالة التمكين للدين الجديد ، وإعادة الأمور إلي نصابها سيقفون علـي قدم المساواة مع من كانت تزدري أنفسهم ، ويعدونهم من الخدم والعبيد .

ومن ثم انقسم المجتمع بنفس تقسيمته الاجتماعية حول الـدين الجديـد ، الطبقـة الأدنـى وهي السواد الأعظم من المجتمع أقبلت علي الـدين الجديـد ، إمـا الطبقـة الأعلـى وطبقـة السادة وأصحاب النفوذ ، فقد استشعروا بأن ذلك الدين سيسلب منهم الـسيادة والنفـوذ ، ويؤلب عليهم من كانوا لهم تبعاً ، ففرضـت علـيهم تلـك الظـروف التـصدي للإسـلام دون هوادة أو حتى تفكـير ، وأصـبحت مـسألة مجابهـة الإسلام بالنـسبة لهـم حتميـة تتعلـق بمصيرهم ووجودهم، وعندما حدثت المواجهة بين الكبراء والـسادة الـذين تـصدوا للإسـلام بغية منعه من الوصول إلي أفراد الطبقة الدنيا الـتي تمثـل في المجتمـع أغلبـه ، والإسـلام الذي فُرضت عليه هذه المواجهة فرضاً لا فكاك منـه ، لم ينفـذ المستـشرقون وحتـى بعـض المؤرخين المسلمين ببصيرتهم إلي هذه الوضـعية الاجتماعيـة – الـتي سـبق إيـضاحها – ، وروجوا جميعاً لمقولة أن الإسلام قد انتشر بحد السيف ، وحقيقة الأمـر أن الإســـلام مـن ذلك برئ ، فهو في أصله دين السماحة ، ولم يقم أبداً علي الصراع أو العنف .

صفوة القول إذن أن الإسلام لم ينتشر بحد السيف كما يزعم بعض الجهلة والمريبين ، ولكنه أُجبر علي قتال الذين حاولوا الحؤول دون وصول الدعوة إلي الشعوب وأفراد المجتمعات الذين استُذِلوا وغُلبوا علي أمرهم ، ولعله من الأدلة الساطعة علي صحة ما تقدم أن الإسلام لم يجبر أحداً علي الدخول فيه ، حتى من أفراد الطبقة الدنيا في المجتمعات التي دخلتها الدعوة ، ومن الأدلة أيضاً أن كثيراً من البلدان بعد فتحها وكسر زعاماتها وطغاتها ظلت علي حالها المعتقدية، سواء أكانوا من أهل الكتاب أومن الكفار عديمي الدين ، ومن ثم يتضح جلياً أن المقصد والغاية النهائية كانت الدعوة والتبليغ بالقول والفعل .

وطفقت الدعوة للإسلام بأساليبها – التي أشرنا إليها – في موضع خلا تفرز آثارها الإيجابية ، وشرع الناس يدخلون في دين الله أفواجاً .

يضاف إلي ما تقدم دليل آخر علي دحض فرية انتشار الإسلام بحد السيف ، يتمثل في أن كثيراً من البلدان في أقصى الشرق من شبه جزيرة العرب في الهند والصين وإندونيسيا والفلبين قد دخلها الإسلام دون مواجهات تذكر مع التجار والمسافرين والمبشرين بالدين الجديد والدعاة إليه .

ثالثاً : سماحة الإسلام ورحابته :

ساعد كثيراً في إنجاز وإنضاج جملة التفاعلات التي تمت داخل المجتمعات التي دخلها الإسلام أو الأخرى التي وصلتها أخباره عبر وسائل الاتصال المتاحة آنذاك ، سماحة ذلك الدين ورحابته ، وما تضمنه من قيم ومبادئ ومثل ، وما حواه من طروحات خاصة بتنظيم كافة شئون الحياة ، وما رافقه من مقومات وعناصر وأشكال الحضارة والمدنية ، وكل ذلك قد بَين بجلاء قيمة ذلك الدين ، وأوضح بنقاء أنه لم يكن ديناً فقط ، ولكنه كان حياة

كاملة ، والملفت للانتباه ، وما زاد من التفاف الناس وتمسكهم بهذا الدين الجديد ، هو معاملته لزعماء المجتمع من طغاة العهود البائدة ، فقد رفق الإسلام بأولئك ، ولم يغلظ عليهم ، بل أتاح لهم فرصة النكوص علي عقبيهم ، والرجوع إلي جادة الصواب ، وتحولوا في كثير من الأحوال إلي دعاة لذلك الدين ، وابلوا في ذلك بلاءً حسناً .

المبحث الثاني

الانتشار في كافة الاتجاهات

لم يحدد الإسلام لانتشاره اتجاهات بعينها ، بل انتشر في كافة الاتجاهات ، فهو دين للناس جميعاً لا يعرف جنساً ولا عرقاً ، ويمكن متابعة انتشار الإسلام واتجاهات ذلك الانتشار من خلال ما يلي :

أولاً : الاتجاه نحو الشرق :

ينبغي أن نؤكد مرة أخرى علي أننا لم نقصد بمتابعة الانتشار الإسلامي في كافة الاتجاهات دراسة تاريخية دقيقة ومفصلة لعمليات الفتح والسيطرة علي البلاد والمناطق المختلفة ، فذلك النهج غير ذي جدوى في هذا الموضع ، ولكننا قصدنا الاستدلال بذلك الانتشار علي كونه أحد العناصر المهمة والمقومات الأساسية للحضارة الإسلام .

وإذا انتقلنا للحديث عن الاتجاه الأول الذي سلكه الإسلام في سبيل الانتشار والذيوع ، وحمل معه حضارته وثقافته ، فهو الاتجاه نحو الشرق حيث كانت تربض الحضارات القديمة ذات الأصول والجذور التاريخية الضاربة ، ومقدرات القوة غير العادية ، وكانت أول تلك الحضارات هي الحضارة الفارسية ، ثم تلا ذلك حضارات أخرى متفرقة في منطقة وسط آسيا ذات الطبيعة القاسية والظروف الاقتصادية والسياسية والاجتماعية المتفردة ، وهذه الحضارات وإن كانت أقل شأواً من الحضارة الفارسية في العمق التاريخي والمقدرات الثقافية ومكنات القوة ، إلاّ أنها كانت ذات وزن يعتد به عندما تدخل في صراعات تحدد مستقبلها ومصيرها ، لنتابع التحليل :

❖ فارس ووسط آسيا :

كان الرسول الكريم علي علم كامل وكذا صحابته بقوة إمبراطورية فارس التي تجاور الإسلام من ناحية الشرق ، وهو لا يزال قوة وليدة لا تملك من العتاد الحربي إلاّ أقله وأبسطه ، ومن استراتيجيات الحرب وحيلها إلاّ المتواضع ، ولم يعهدوا كثيراً من فنونها وضروبها وأساليبها .

وإذا كان ما تقدم هو الواقع العملي والشكل المرئي ، إلاّ أن هؤلاء القوم أقصد المسلمين الأوائل كانوا يملكون قوة أخرى خارقة لا توازيها العدد والمعدات ، ولا تضارعها الخطط والاستراتيجيات ، ولا تضاهيها المهارة والحنكة والحرفة في القتال ، تلك كانت قوة الإيمان بكل ما تعنيه من استهانة بالحياة في سبيل كلمة " لا إله إلاّ الله " ومن إقبال علي الحرب بإقدام ورغبة في الموت الذي لا جزاء له إلاّ الجنة ، وهكذا كانت قوة الإيمان هي أهم ما يملكه جماعة المسلمين ، عندما شرعوا في نشر الإسلام والتقدم نحو أعتى قوتين موجودتين في ذلك الزمان وهما : إمبراطورية آل ساسان التي كان علي عرشها كسرى أنوشروان الساساني الفارسي والأخرى هي الإمبراطورية الرومانية .

ولما كان المسلمون علي يقين من قوة جارهم الشرقي العملاق ، وعلي يقين كذلك من أنهم لن يسلموا من أذاه وأطماعه ورغبته في وأد هذه الدعوة ، وهي لا تزال في المهد ، وبصفة خاصة أنها تناهض دين فارس وتمقته ، وترغب في القضاء عليه ، لذا فقد كان عليهم أن يفكروا في الاستعداد لتلك القوة إن عاجلاً أو آجلاً ، وقد زكي ذلك وعجّل به التحرشات التي بدأت تمارسها الدولة الفارسية تجاه المسلمين .

ومعلوم تاريخياً أن إمبراطورية فارس كانت عبارة عن مجتمع يمتلك حضارة قديمة وثقافة ذات شأن ، قوامها الموروث الديني القائم علي القوة والعنف والمستمد من عبادة النيران ،

وكان المجتمع الفارسي مجتمعاً محكماً تسوده وتحكمه قوانين وأنظمة صارمة منبعثة من قوة الدولة التي يجلس علي عرشها إمبراطور شعاره القوة ودأبه الحرب والنزال .

وكان من المنطقي إزاء هذا الوضع أن يكون المسلمون علي الجهة المقابلة أكثر قوة وأكثر استعداداً وجاهزية لمقابلة ندٍ لا يستهان به ولا بقوته ، ومن ثم فقد كان لزاماً عليهم أن يبادروا وإلاّ فسيبيتون لقمة سائغة أمام هذا الجار القوي العاتي .

لقد كان ذلك هو الاختبار الأول لقوة المسلمين خارج أراضيهم ، وفي مواجهة أجناس غير عربية وأعراق مختلفة ، إن هدف المسلمين -كما سبق القول - هو الدعوة إلي الإسلام ونشره بين شعوب الأرض ، إلاّ أنه في هذه الحالة حال دون ذلك حاكم قوى وعنيد بل جبار ، يأتمر بأمره جيش منظم لعله من أقوى جيوش الأرض في ذلك الزمان ، ووراءه شعب كثيف ومجتمع متحضر يقتنع بحكامه ونظامه ، ويعتنق ثقافة يعتز بها ، كل ما تقدم عندما يوضع في كفة ويقابله في الكفة الثانية رغبة المسلمين ومضاؤهم علي نشر الدعوة ، فلابد أن ترجح الكفة الأولى ، هذا ما يمليه المنطق وإلي أن يلتقي الجمعان .

إن الدعوة لابد أن تبلّغ إلي الشعب ، والإسلام لابد أن يصل إلي الناس ، وعليه فلابد من إزالة الحائل والعائق الذي يحول دون ذلك ، ومن ثم فلا مفر من مواجهة من يحولون دون وصول الدعوة ويعوقون وصول الإسلام ، ولم تكن الحرب حرفة لدى المسلمين أو هواية، ولكنها كانت ضرورة تستوجبها إلزامية نشر الدعوة ، فهي فريضة وحتمية يتطلبها إصرار الحكام علي الحؤول دون وصولها إلي الشعوب .

وبعد حرب شرسة بين المسلمين والفرس فتح الله للمسلمين هذه البلاد ، ودخل أهلها في دين الله أفواجاً ، وهنا يحسن إزجاء هذه الملاحظة حيث اعتاد المؤرخون والمستشرقون أن يطلقوا علي البلاد التي يفتحها المسلمون أمام الدعوة الإسلامية " البلاد التي تم ضمها " أو

" السيطرة عليها " في حين أن ذلك غير وارد في أية أدبيات مأثورة عن المسلمين الأولين ، بل كانوا يطلقون علي ذلك " فتحاً " حيث فتح الله لهم هذه البلاد أمام دعوتهم الميمونة للإسلام الحنيف ، ولم يكن لهم مآرب تتجاوز ذلك ، فقد قال تعالى في ذلك :" إنا فتحنا لك فتحاً مبيناً "[1].

وقال تعالى :" إذا جآء نصر الله والفتح "[2].

وحقيقة الأمر أنه عندما تم فتح بلاد فارس أُضيفت إلي قوة المسلمين قوة أخرى عظيمة ، ودخل الفرس في دين الله انبهاراً بالدين الجديد الذي حطّم ما كانوا يعبدون من دون الله ، وكذا رغبة وابتهاجاً بالخلاص من طغيان آل ساسان وجبروتهم وكان ذلك هو شعور الطبقة المطحونة بشكل خاص ، وفي مرحلة تالية وبعد وقت قصير ذاق أبناء فارس طعم الإسلام ، واستساغوا سماحته ورحابته ، وخبروا قيمه ومبادئه ، وتمرسوا نظمه وأصوله ، فتحولوا إلي قوة داعمة وقدرة حافزة أدت إلي استمرارية المد ودوام الفتح المبين .

واصل المسلمون نشر دعوتهم بالاتجاه شرقاً وشمالاً نحو المناطق الداخلية ووسط آسيا ، وكانت توجد في هذه المناطق ممالك ودويلات صغيرة مكونة من شعوب ذات أصل إيراني ، وكانت هذه الممالك والدويلات عادةً ما تستعين بالأتراك أو بالصينيين لمواجهة قوة المسلمين الفاتحين ، إلا أن الأمر انتهى بفتح هذه المناطق أمام الإسلام ودعوته .

وكان الإسلام بفضل هذه الفتوحات وما يعقبها من انتشار يكتسب قوة الدفع التي تسهّل علي المسلمين مواصلة تقدمهم ونشر دعوتهم ، ومن ثم تقدم المسلمون فعبروا نهر جيحون وفتحوا بلاد ما وراء النهر وهي أفغانستان الحالية ومعها شمال إيران وتركيا ، ومعلوم ما

---

[1]. سورة الفتح ، ١ .
[2]. سورة النصر ، ١ .

تتسم به هذه المناطق من طبيعة قاسية وجغرافية وعرة ، وانتهى الأمر بفتح وسط آسيا أمام الإسلام الحنيف .

ولم يكن أمام المسلمين من وسيلة ينشرون بها الإسلام إلا الحرب ، ولم تكن الحرب أبداً ضد الشعوب ، فالشعوب هي المستهدفة من وراء الدعوة وهي المخاطبة بها ، ولكن الحرب كانت هي الملاذ الأخير أمام المسلمين عندما يحال بين المسلمين وبين توصيل دعوتهم إلي تلك الشعوب ، ولم يؤخذ علي جيش المسلمين أن أعمل سيفاً في شعب من الشعوب ، ولكنه كان يحارب من يريد الحرب ويحول دون ولوج الدعوة .

تقدم الفتح الإسلامي ليعبر جبال القوقاز باتجاه جنوب روسيا ، وفي المناطق الواقعة جنوب القوقاز واجه الفتح الإسلامي ممالك ودول عدة من الترك الذين اشتهروا بالقوة وشدة البأس ، إلا أن تصميم المسلمين وعزمهم كان كفيلاً بتطويع تلك القوة وتمكينهم من نشر دعوتهم ، وتحولت تلك الممالك والدول إلي محطات ومواقع إستراتيجية تتزود منها الجيوش العربية الإسلامية بالمؤن والإمدادات وهي في طريقها لعبور جبال القوقاز ومواصلة نشر الدعوة الإسلامية في جنوب روسيا .

وبالفعل عبر الفتح الإسلامي المبين جبال القوقاز وواصل زحفه شمال تلك السلسلة الجبلية الشهيرة ، وكانت موسكو الحالية قاب قوسين أو أدنى من الفتح الإسلامي ، ولكن التواجد الإسلامي في جنوب روسيا شمال جبال القوقاز لم يدم طويلاً بسبب بعض الإشكاليات الاستراتيجية وكذا بفعل بعض الظروف السياسية .

وبالنسبة للإشكاليات الاستراتيجية ، فقد تمثلت في بعد هذه المناطق عن مركز الخلافة الأموية في ذلك الوقت ، وضعف الإمدادات العسكرية التي كان يتطلبها الفتح والتواجد الإسلامي في تلك المناطق ، وبصفة خاصة أنها مناطق شديدة الوعورة قاسية المناخ ، وأهلها

من ذوي القوة والبأس وشديدي الحرص علي دينهم الذي كان مزيجاً من المسيحية والوثنية والمانوية وأحياناً عبادة المجاري المائية .

أما بالنسبة إلي الظروف السياسية ، فقد أدى انتهاء الخلافة الأموية ، وانتقال الخلافة إلي العباسيين في بغداد إلي إنهاء الوجود الإسلامي كلياً في هذه المناطق بشكله الرسمي ، حيث انسحب القائد الفاتح لهذه المناطق وهو مروان بن محمد آخر الخلفاء الأمويين .

ولعل الملاحظة الجديرة بالذكر والاعتبار في هذا الصدد هي أن الدين الإسلامي واصل انتشاره في هذه المناطق سلمياً وتمركز في تجمعات حافظت عليه وعملت علي نشره والدعوة إليه مدة طويلة من الزمن .

من تركيا التي واجهت الفتح الإسلامي بقوة وعنف وتأبت علي الإسلام والدعوة الإسلامية فترة من الزمن غير قصيرة ، أنتقل الإسلام برفقة التجار والدعاة المبشرين نحو الشمال الغربي إلي شعوب البلغار ، الذين اعتنقوا الدين الجديد وحافظوا عليه بالرغم من وصوله إليهم عبر أناس ينقصهم التفقه والتعمق فيه ، وكانوا في توق وحاجة إلي من يبصرهم بالأصول والأسس من أبنائه الأصليين ، ومن ثم فقد ظل أبناء الشعب البلغاري دائمي التساؤل والاستفسار عن الكثير من المسائل الدينية في العبادات مثل الصلاة والصيام وغيرها من المسائل ، نظراً للاختلاف الشديد في عوامل المناخ والطقس ، وكان ذلك هو أقصى ما وصل إليه الإسلام من ناحية الشمال الغربي .

❖ الهند :

لقد توقف الفتح الإسلامي من ناحية الشرق بضم إيران ووسط أسيا إلي الإسلام ونشره في ربوع هذه المناطق الواسعة ، وقد كانت البلاد التي يفتحها المسلمون تزيدهم قوة وتضيف إلي مقدراتهم فيندفعون بقوة أكبر وهكذا ، وكان الانتشار في المرحلة التالية عن طريق

الاختلاط والعلاقات والمعاملات والتبادلات التجارية ، وذلك ما حدث بخصوص نشر الإسلام في الهند وإندونيسيا والصين .

وعند متابعة دخول الإسلام للهند نلحظ أنه قد دخل وانتشر في هذه الدولة المترامية الأطراف عبر ثلاثة طرق :

– الطريق الأول : حيث دخل الإسلام إلي الهند عن طريق السواحل الجنوبية ، وقد وصل المسلمون إلي هذه السواحل بصفتهم دعاة للإسلام وتجار ، وأقاموا علي الساحل الجنوبي من الهند مستعمرات في " الموبلا " علي ساحل " مالابار " .

– الطريق الثاني : حيث دخل الإسلام إلي السند وجزء من منطقة البنجاب عن طريق الفتح ، وهو الجزء الوحيد من الهند الذي تم نشر الإسلام فيه عن طريق الفتح ، ويعود التخطيط لفتح هذه المنطقة من الهند إلي عهد عمر بن الخطاب ، حيث خطط بعض قادته إلي فتح هذه المنطقة ، ولكن بن الخطاب لم يشجع ذلك ، وتوقف الأمر عند هذا الحد ، وفي عهد الأمويين أرسل الحجاج بن يوسف الثقفي بعثة قادها محمد بن القاسم تمكنت من فتح السند وجزء من البنجاب .

– الطريق الثالث : وعبر هذا الطريق تم الخلط بين الفتح والهجرة والتجارة من خلال ممرات أفغانستان الشمالية الشرقية ، وبدأت هذه الانطلاقة بفتوحات محمود الغزنوي وتأسيس الدولة الغزنوية في البنجاب وكانت عاصمتها لاهور ، وتلا ذلك الغوريون ثم المماليك .

وهكذا انتشر الإسلام في الهند عن طريق الفتح مرة وعن طريق الدعوة السلمية والتجارة والعلاقات الاجتماعية مرات ، وهذا أقوى دليل علي أن الحرب لم تكن حرفة المسلمين أو

طريقتهم لنشر دينهم ، بل لم يكن يتم اللجؤ إليها إلا عند الضرورة القصوى ، وكانت الطرق الأكثر شيوعاً هي نشر الدعوة الإسلامية بالطرق ذات الصبغة الإنسانية .

❖ إندونيسيا :

أوضحنا فيما سبق أن الإسلام قد توطد في أماكن عديدة من الهند ، وكانت مناطق تمركز الإسلام في الهند بمثابة محاور ارتكاز أو منطلقات انطلق منها الإسلام في موجات متتابعة ومتدرجة في اتجاه الأرخبيل الإندونيسي ، وقد جاء الإسلام إلي إندونيسيا من الجهة الشمالية الغربية ، و بدأ من شمال " سومطرة " عند طريق " ملقا " التي كان لها مع " جاوا " علاقات وطيدة ، ومنها انتشر في بقية الأراضي .

وعندما دخل الإسلام إلي إندونيسيا حل محل الديانة الهندوسية البوذية ، وجاء عن طريق التجار والدعاة ، وكان اعتناق السكان للإسلام بسبب سماحته والقيم التي جاء بها ، ولم يكن يلجأ إلي قوة أو يفرض بالعنف .

والإسلام حديث في إندونيسيا ، فقد دخلها في نهاية القرن الثالث عشر الميلادي ، وانتشر في هذه البلاد واستقر فيها ، بسبب حماس السكان الشديد له ودفاعهم عنه ضد الديانات الأخرى وبالذات المسيحية .

❖ الصين :

من مناطق ما وراء نهر جيحون في وسط أسيا تقدم الإسلام في اتجاه الصين عبر التجار وحركات التبشير والدعوة الإسلامية ، وازدهرت مستعمرة " كانتون " التي تمركز بها المسلمون التجار والدعاة ، وكانت طرق التجارة والتبادلات تتم عن طريق البحر كما كانت كذلك عن طريق البر من مناطق وسط أسيا .

ثانياً : الاتجاه نحو الغرب :

نقصد بانتشار الإسلام صوب الغرب اتجاهه ناحية الغرب وعبور الممر البري الذي يربط قارة آسيا بقارة أفريقيا ، ثم سيره بمحاذاة ساحل البحر المتوسط في شمال أفريقيا إلي أن وصل إلي المحيط الأطلنطي ، وعلي هذه الشريط الساحلي دخل الإسلام مصر ومنها انطلق إلي صحراء ليبيا ثم دخل إلي تونس والجزائر الحالية إلي أن وصل إلي أقصى الغرب في مراكش .

ولاحظنا عند حديثنا عن الاتجاه الذي سلكه الإسلام ناحية الشرق أنه قد صادف حضارات ضاربة بجذورها في أعماق التاريخ ، كما صادف شعوباً همجية لا تعرف تحضراً ولم تعهد مدنية ، وبرزت حينئذ براعة الإسلام عندما تعامل مع كلٍ حسب حصيلته من الحضارة ومبلغه من الثقافة ، فنشر دعوته تارة بالاتصال والتواصل والحوار ، وتارة أخرى بالفتح عندما يفرض عليه ذلك .

وفي الاتجاه ناحية الغرب حسب الطريق الذي وصفناه كان الوضع مختلفاً من جهات عدة: فبعض البلاد كان يقع تحت الحكم المباشر لإحدى الإمبراطوريات القوية في ذلك الوقت وهي الإمبراطورية الرومانية ، وهذه كانت حال مصر التي تقع في أقصى الركن الشمالي الشرقي للقارة السمراء المجهولة بالنسبة للمسلمين ، والتي تعد المعبر البري بين آسيا منبع الدعوة الإسلامية وأفريقيا التي تتوجه نحوها الأنظار بأمل يشوبه الغموض ، وبعض البلاد كان بمثابة شعوب مجهولة لم يعهدها المسلمون ولم يسمعوا عنها من قبل ، فكان الأمر جد مختلف ، ولكن في ذات الوقت كان للإسلام آلياته التي مكنته من التعامل مع كل حدث حسب وقعه وكل وضع وفق قدره .

❖ مصر :

كانت مصر أول نقاط الجهة الغربية لشبة الجزيرة العربية التي يتوافر عنها مزيد من المعلومات والمعرفة لدى المسلمين الأوائل ، وقد عُرفت مصر جيداً من خلال ما جاء عنها في القرآن الكريم ، ومن خلال العلاقات المحدودة التي نشأت بين دولة الإسلام في المدينة المنورة وبين هذا المركز ذي الإشعاع الحضاري المعروف .

وقد أوصى الرسول الكريم خيراً بأبناء هذا البلد في حديث صحيح حيث قال صلى الله عليه وسلم " استوصوا بمصر خيراً ففيها خير أجناد الأرض " ، ومعلوم أن السيدة ماريا زوج الرسول الكريم وأم ولده إبراهيم هي مصرية الأصل زفها إليه المقوقس ملك مصر تحت سيادة الإمبراطورية الرومانية .

ما تقدم كان كفيلاً بأن يمنح مصر موقعاً متميزاً في تفكير صانع القرار في دولة الإسلام ، حيث أيقن بأن هذه الأمة ستضيف إلي الإسلام زخماً لا يستهان به ، وستمثل منطلقاً متقدماً للإسلام نحو القارة المجهولة علي محورين : الأول باتجاه الغرب بمحاذاة الساحل ، والثاني باتجاه الجنوب إلي السودان بتتبع مجرى النيل ، ومن ثم كان تفكير عمر بن الخطاب بالتحرك نحو مصر ونشر الإسلام فيها .

وكان الوضع المعتقدي والاجتماعي في مصر يحتاج إلي مزيد من التفكير والتدبر ، فسكان مصر جميعهم من المسيحيين أهل الكتاب ، ولهم ذمة في الإسلام ، وبالتالي فالفتح سوف يختلف وسيكون التركيز بالأساس علي الدعوة والتبليغ ، فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليحتفظ بدينه ، هكذا دخل الإسلام مصر ولم تكن ثمة مقاومة يمكن أن تذكر إلا من بعض الحاميات العسكرية ذات الصفة الرسمية التي تحصنت بحصونها وثكناتها ، ورفضت التسليم ، ولكن سرعان ما أسلمت زمام أمرها للفاتحين المسالمين .

ووقف أهل مصر على حقيقة هذا الدين وطبيعة الفاتحين والدعاة ، ولم يلبثوا أن أعلنوا الإسلام ديناً لهم وتخلو عن المسيحية وتوثقت الصلات والوشائج بين أهل البلاد والفاتحين بسرعة ملفتة ، وأصبحت مصر أهم مركز من مراكز الإسلام في إفريقيا بل والدولة الإسلامية آنذاك ، أما بالنسبة إلي السيادة للإمبراطورية الرومانية فقد انتهت رسمياً بدخول المسلمين إلي مصر .

وبدت سماحة الإسلام ورحابته عندما سمح لأهل البلاد أن يظلوا علي دينهم ، واحتفظ جزء من الشعب المصري بديانته المسيحية في الوقت الذي اندمج هؤلاء المسيحيون في الحياة الاجتماعية والاقتصادية والثقافية بشكل يصعب معه القول بأنهم علي غير الإسلام ، واصبحوا جزءاً من نسيج مجتمع مصر الإسلامية وعنصراً من عناصره الحضارية والثقافية.

❖ صحراء ليبيا وبلاد المغرب :

أصبحت مصر – كما سبق الإيضاح – مركزاً متقدماً ومنطلقاً إستراتيجياً مهماً لدولة الإسلام نحو وسط وعمق أفريقيا جنوباً ، ونحو غربها بمحاذاة ساحل البحر المتوسط حتى المحيط، وتم فتح برقة بعد مصر في عهد الخليفة عمر بن الخطاب ، وفي العصر الأموي نشطت حركة الفتح ونشر الدعوة الإسلامية في أفريقيا شمال الصحراء الكبرى بمحاذاة الساحل ، وكذا جنوبها شرقاً وغرباً ، وتحركت الدعوة الإسلامية في الاتجاه الأول بسرعة ملحوظة ، وتمثل المحط الثاني بعد مصر وبرقة في صحراء ليبيا ، حيث كانت هناك عدة مراكز ساحلية قوامها قبائل بدوية شبه متحضرة دخلت في الإسلام دون مقاومة تذكر ، وكانت الصحراء الليبية تعاني من قلة السكان وتواضع حجم المراكز العمرانية علي الساحل

، وكان أهم مركز استراتيجي علي ساحل ليبيا في طرابلس حيث انطلق منه المسلمون لفتح تونس .

ثم واصل المسلمون تقدمهم غرباً باتجاه المحيط وبمحاذاة ساحل المتوسط ، فدخلوا قرطاج وهي تونس الحالية ، بعد أن فتحوها عبر معارك متعددة ، وكانت تابعة للإمبراطورية الرومانية وتعرف بأفريقيا الرومانية ، وكان سكان هذه البلاد خليطاً من البربر وهم سكان هذه المناطق الأصليون ، وآخرين ينحدرون من أصول فينيقية جاءت إلي هذه البلاد من الحوض الشرقي للبحر المتوسط ، وعندما دخل الإسلام إلي هذه المنطقة لم يلاق مقاومة إلا من البربر الذين أعلنوا استياءهم في بادئ الأمر ، ولم يلبثوا أن دخلوا في الإسلام واعتنقوه وحملوا لواء الدعوة في مناطق جنوب أوربا وأسبانيا ، أما المسيحيون من أهل تونس فقد دخلوا الإسلام سريعاً وتحمسوا للدعوة الإسلامية .

وعندما عبر المسلمون حاضرة قرطاج ميممين غرباً صوب المحيط جوبهوا بشعوب بربرية شديدة المراس وهم سكان الجزائر ومراكش الحالية الأصليون ، وقاومت هذه الشعوب الإسلام والدعوة الإسلامية بعنف وضراوة ، وأعربوا عن رفضهم للدين الجديد في أول الأمر ، إلاّ أنهم لم يستمروا في مقاومة الدين الجديد بقيمه ومبادئه التي بهرتهم وجذبتهم لاعتناقه في سهولة ويسر ، والملفت أن هذه الشعوب حملت فيما بعد لواء الدعوة والحضارة والثقافة الإسلامية إلي الأندلس وجنوب إيطاليا وجزر البحر المتوسط مثل مالطا وكريت وقبرص .

ومن السهولة تفسير التجاوب السريع من سكان مناطق المغرب وصحراء ليبيا وإجماعهم شبه المطلق علي اعتناق الدين الجديد ، وتفسير ذلك مرده إلي أن شعوب تلك المناطق كانت في معظمها من عديمي الديانة أو لديهم ديانات محلية محدودة الانتشار والتأثير ، ومن ثم فلم يكن هناك ديانات ذات وزن وتأثير يمكن أن تزاحم الإسلام في عقول وقلوب

تلك الشعوب ، وذلك علي العكس مما حدث في مصر حيث وجدت المسيحية التي كانت الديانة الرسمية لدى معظم أبناء الشعب المصري ، وما حدث كذلك في تونس التي كانت بمثابة رأس رمح للإمبراطورية الرومانية في أفريقيا ، ولكن المسيحية سرعان ما انسحبت أمام الإسلام .

لقد كانت عمليات دخول الإسلام ونشر الدعوة في شمال أفريقيا بدءاً من مصر وانتهاءً بمراكش علي ساحل الأطلنطي في غاية الأهمية للإسلام وكذا للدعوة إليه ونشره ، فقد مثلت شعوب هذه المناطق والبلاد قوة دفع مهمة لعمليات الفتح ونشر الدعوة ، التي تواصلت بعد ذلك في مناطق جنوب أوربا في الساحل الشمالي للبحر المتوسط وفي صقلية وفي أسبانيا .

ثالثاً : الاتجاه نحو الشمال :

اتجاه الإسلام وانتشاره في المناطق الشمالية بشبه جزيرة العرب منبع ذلك الدين يشبه الاتجاه نحو الشرق ، وذلك من ناحية أنه في كلا الاتجاهين توجد إمبراطورية ذات حضارة ضاربة بجذورها في أعماق التاريخ ، كما تمتلك مكنات ومقدرات تمكنها من الصمود والتصدي ، إلا أن الاتجاه شمالاً بالإسلام ودعوته قد صادفه الكثير من الصعوبات والعقبات التي جعلته لم يتقدم كثيراً في هذا الاتجاه ، ولم يرسخ أركانه كما فعل في الاتجاه شرقاً ولذلك أسبابه العديدة التي سنذكرها بعد قليل .

كان أول فتح للإسلام في اتجاه الشمال في عهد الرسول الكريم حيث تم إجلاء اليهود عن واحة " خيبر " التي كانوا يتمركزون فيها علي مقربة من المدينة المنورة باتجاه الشمال علي الطريق إلي الشام حوالي مائة ميل ، وكانت " خيبر " أهم معقل لليهود في شبه الجزيرة العربية ، وقد قاد الرسول الكريم بنفسه هذه البعثة التي كان قوامها حوالي ألفاً

وستمائة رجل ، وبعد ستة أسابيع من الحصار فتح المسلمون خيبر بحصنها المنيع ، وسمح الرسول الكريم لليهود بالاحتفاظ بأهلهم وممارسة دينهم ، وأفضت المفاوضات بين المسلمين واليهود إلي أن يبقى اليهود في حقولهم ويقوموا بفلاحتها مقابل دفع نصف المحصول للمسلمين ، إلا أن الخليفة عمر بن الخطاب قد قام بعد ذلك بطرد اليهود من خيبر نهائياً تخلصاً من متاعبهم التي لا تنتهي.

وواصل المسلمون في حياة الرسول الكريم نشر الإسلام والدعوة إليه باتجاه الشمال فتقدموا نحو بيت المقدس وفلسطين ثم سوريا .

وعند دراسة الاتجاه بالإسلام ونشره نحو الشمال كأحد أهم مقومات وعناصر الحضارة الإسلامية ، ينبغي إيضاح أنه سيتم دراسة هذا الاتجاه من خلال محورين علي النحو التالي :

❖ **المحور الأول :**

الاتجاه شمالاً ثم غرباً عبر الشام فجنوب اليونان وجنوب إيطاليا بما في ذلك منطقة البلقان وجزر قبرص وكريت وصقلية في البحر المتوسط ، أي حوض البحر المتوسط الشرقي الأوسط.

❖ **المحور الثاني :**

الاتجاه غرباً عبر شمال أفريقيا أو الساحل الأفريقي للبحر المتوسط وصولاً إلي المحيط ، ثم الاتجاه شمالاً إلي أسبانيا وجنوب فرنسا مروراً بمضيق جبل طارق .

ويلتقي المحوران في نهاية المطاف في جنوب إيطاليا وصقلية ، ويحمل المسلمون الذين سلكوا هذين المحورين معهم الدعوة إلي الإسلام ونشره في المناطق التي مروا بها ، وحملوا

كذلك الحضارة والثقافة الإسلامية ، إلاّ أن الدعوة كانت قوام الحضارة ومخ الثقافة ، والتفصيل فيما يلي :

❖ المحور الأول :

أوضحنا لتونا أن المحور الأول انطلق من المدينة المنورة عاصمة الإسلام الزاهرة في فجره الأنور متجهاً شمالاً ميمماً صوب الشام التي هي فلسطين الحالية ، والتي تضم آثاراً روحية دينية ذات طبيعة خاصة للإسلام كمسرى الرسول الكريم قبل عروجه إلي السماء ، وللمسيحية كمقدسات متعددة ، ولليهودية كذلك كآثار اختلطت إزاءها الأساطير بالوقائع التاريخية والعقائد الدينية ، هكذا كانت الشام [فلسطين] بالنسبة للإسلام ورغبة أبنائه الأولين في نشره وتبلغيه إلي العالمين .

وتحرك جيش الفتح الإسلامي إلي الشام في عهد عمر بن الخطاب ودخل الإسلام بيت المقدس، وضرب أروع الأمثلة علي سماحته وسعته ورحابته ، حينما لم يتعرض المسلمون لأي معلم من معالم المدينة المقدسة ، ولم يجبروا أحداً من ساكنيها علي تغيير ديانته ، بل لم يفعلوا أكثر من تبليغ رسالة الإسلام بما أوتوا من وسائل وأدوات قوليه إرشادية وفعلية سلوكية ، وكان التجاوب مع الدين الجديد بقيمه ومبادئه جديراً بالاعتبار ، إذ أن مبدأ الاختيار والمفاضلة بين المسيحية التي كانت ضاربة بجذورها روحاً ونظاماً وبين الإسلام بمثله وأخلاقياته ذلك الوافد الجديد الذي هب حاملاً بصحبته نسمات القيم والتوحيد والطهر والنقاء ، قد أفضيا إلي اختيار الإسلام وتزكيته .

وعلي نفس هذا المحور المنبعث من مدينة الرسول الكريم واصل الفتح الإسلامي زحفه باتجاه الشمال حاملاً معه الدعوة إلي دين الله حتى وصل إلي إحدى قلاع الإمبراطورية الرومانية المتقدمة في الشرق القديم والحوض الشرقي للبحر المتوسط وهي سوريا ، وعبر

معارك ومناورات متعددة تم فتح سوريا ، التي كانت تحت السيادة الرومانية في موقعة شهيرة هي معركة اليرموك التي حسمها المجاهد الإسلامي الأشهر خالد بن الوليد .

ودخل الإسلام سوريا علي إثر الفتح وانتشرت الدعوة في أرجاء البلاد وحل الإسلام بشكل مكثف محل المسيحية ، ولم يدخل أحد الإسلام إلا مختاراً ، واحتفظ عدد من السكان غير قليل بدينه ، وأيقن أهل البلاد أن الدين الجديد لم يأت ليحل محل المسيحية فازدادت مكانته وسمت منزلته ، حتى لدى المسيحيين أنفسهم ، وتعايش الجميع في سوريا الإسلامية تسعهم رحابة الإسلام وتظلهم سماحته .

وكان الطريق باتجاه الشمال مفتوحاً وميسراً أمام الفتح الإسلامي ، فواصل المسلمون نشر دينهم حتى تجاوزوا جبال الأمانوس وطوروس حتى وصلوا إلي أبواب كيليكية ، وكذلك ادخلوا بحر مرمرة ضمن أراضى الفتح الإسلامي ووصلوا إلي القسطنطينية عاصمة الإمبراطورية الرومانية وحاصروها ثلاث مرات ، ونشر الإسلام دعوته في هذه المناطق ، حتى أنه في كل مرة كان يحاصر فيها المسلمون القسطنطينية كانوا يتركون فيها أثراً من الآثار الإسلامية ، وبشكل أكثر تحديداً في ضواحيها ، ومن أشهر تلك الآثار التي لا تزال قائمة حتى اليوم مسجد أبي أيوب الأنصاري الذي قتل هناك أثناء الحصار الذي قام به مسلمة بن عبد الملك لعاصمة الإمبراطورية .

من هذه الطريق ومن طرق أخرى دخل الإسلام إلي السواحل الجنوبية لليونان وجزيرة كريت، ولم يكن ذلك عن طريق الفتح المباشر ، ولكنه جاء نتاجاً لمجهودات فردية ، إضافة إلي الحركة التجارية والتبادلية والتبشيرية القوية التي ازدهرت في عهد الأمويين ، ودخل الإسلام هذه البلاد وأهلها يعتنقون ديانة راسخة هي المسيحية ، وبالرغم من ذلك وجد الدين الجديد مكاناً رحباً وعقلاً خصباً ، فأسس مراكز وتجمعات إسلامية لا يستهان

بها علي الحافة الجنوبية لليونان وجزيرة كريت ، وإن كانت هذه الوضعية قد تغيرت مع الزمن وانحسر فيها المد الإسلامي ، فهذا ليس موضوعنا الآن .

وكانت آخر امتدادات هذا المحور من محاور المد والانتشار الإسلامي متمثلة في وصول الإسلام والدعوة الإسلامية إلي الشواطئ الجنوبية لإيطاليا ، وتأسست مراكز إسلامية قوية في باري وتارانتو ، ومن هذه النقاط المؤثرة انتشر الإسلام شمالاً ليس عن طريق الفتح هذه المرة ، ولكن عن طريق التجارة والتبادل والدعوة والتبشير .

❖ المحور الثاني :

أوضحنا أيضاً أن المحور الثاني من محوري الاتجاه شمالاً لنشر الإسلام قد تم من خلال الاتجاه أولاً من المدينة المنورة غرباً باتجاه المحيط الأطلنطي بمحاذاة الساحل الشمالي لإفريقيا ، مروراً بمصر والإسكندرية وبرقة وصحراء ليبيا ثم طرابلس ثم تونس وانتهاءً بالمغرب الأقصى [مراكش] ثم الاتجاه من مضيق جبل طارق وعبوره شمالاً إلي شبه جزيرة أيبيريا [أسبانيا] ، ومن هنا تفرع هذا المحور إلي فرعين : الأول واصل الاتجاه شمالاً ، والثاني اتجه شرقاً مرة أخرى ، ولكن هذه المرة علي الحافة الجنوبية لأوربا بمحاذاة ساحل المتوسط حتى وصل إلي جنوب إيطاليا وصقلية حيث يلتقي مع المحور الأول .

لقد تحدثنا علي المحور الأول عن الإسلام في جنوب إيطاليا ، وما يمكن أضافته هنا هو أنه بالإضافة إلي الإسلام الذي توافد مع التيار المتدفق من المحور المنبعث من الجنوب من المدينة المنورة مروراً بسوريا كان هناك تيار آخر متدفق من المحور المنبعث من الغرب من شبه جزيرة أيبريا مروراً بجنوب فرنسا وصب التياران علي الحافة الجنوبية لإيطاليا .

سار الإسلام كما أسلفنا بمحاذاة ساحل المتوسط في شمال إفريقيا متجهاً غرباً حتى وصل إلي المحيط الأطلنطي ، ومن أضيق نقطة بين البحر المتوسط والمحيط عبر متجهاً في اتجاهين : الاتجاه الأول واصل التقدم شمالاً حتى غطى شبه جزيرة أيبيريا [أسبانيا] ، الاتجاه الثاني عبر جبال البرانس وتقدم إلي الشمال الشرقي ، وكانت نتيجة هذه المسيرة كالآتي : تم فتح شبه جزيرة أيبيريا [أسبانيا] وازدهر فيها الإسلام ، ومثلت الأندلس المركز الثاني بعد عاصمة الأمويين في دمشق ، ولم تلبث أن انتقلت إليها دولتهم بالكامل حال انتقال الخلافة الرسمية إلي بغداد .

وصل الإسلام إلي الأراضي الفرنسية عبر جبال البرانس ، وتجاوزها إلي جبال الألب في سويسرا وشمال إيطاليا ، ولم يقدر للإسلام أن يؤسس مراكز مستقرة ودائمة في هذه المناطق نظراً لطول الطريق وكثرة المخاطر التي تحفه وتطول قوافل الإمدادات التي تنطلق من القاعدة اللوجستية المتقدمة في شبه جزيرة أيبيريا [أسبانيا] وشمال أفريقيا .

بصحبة هذا الركب وصل الإسلام إلي جزيرة صقلية في البحر المتوسط مع القائد العربي الإسلامي أسد بن الفرات من المغرب ، ومعه العرب المسلمون المغاربة قوام جيشه ، وقد جاءوا أساساً من تونس ، وانتشر الإسلام في الجزيرة وبصفة خاصة في نصفها الغربي بشكل مكثف ومتأصل ، في حين ظل أقل كثافة وتأصل في نصفها الشرقي ، حيث كانت المسيحية هي الأوفر حظاً لدى سكان هذا الجانب من الجزيرة ، وكانت في ذات الوقت هي الديانة الأقدم ، ولم يكن الإسلام وهذا معلوم يفرض عنوة ، فكان توزيع الديانتين علي الخريطة الديموجرافية للجزيرة يتم بشكل تلقائي كما ترسمه عوامل التاريخ والبيئة ومبدأ حرية الاختيار والمفاضلة الذي يعد أهم مبدأ سياسي واجتماعي يقره الإسلام !

رابعاً : الاتجاه نحو الجنوب :

الاتجاه نحو الجنوب بالنسبة إلي انتشار الإسلام كمقوم وكعنصر من عناصر الحضارة الإسلامية عند نشأته منذ أربعة عشر قرناً من الزمان ، لا يعنى الاتجاه جنوباً في أفريقيا جنوب الصحراء الكبرى فقط ، ولكنه يعنى في ذات الوقت الاتجاه جنوباً في شبه الجزيرة العربية حتى سواحل البحر العربي والمحيط الهندي والمدخل الجنوبي الشرقي للخليج العربي .

ووفقاً للتحديد المتقدم وصل الإسلام مبكراً إلي اليمن ، ومنها وعبر طرق أخرى تمكن من تغطية الساحل المطل علي البحر العربي والمحيط الهندي وحتى الساحل الغربي للخليج العربي.

وفي مرحلة تالية انتقل الإسلام إلي أفريقيا جنوب الصحراء الكبرى في المنطقة الممتدة من السنغال في الغرب إلي الصومال في الشرق ، وقد دخل الإسلام إلي هذه المناطق عبر حركات الدعوة النشطة في عهد الأمويين ، ثم مع حركة التبادل التجاري والاجتماعي التي تمت بين مسلمي شمال أفريقيا وهذه المناطق .

وعندما دخل الإسلام إلي هذه المناطق وجد المسيحية ووجد ديانات أخرى محلية ، ولكنه احتل مكانته الخاصة وموقعة المميز من خلال ما اتسم به من قدرة فائقة علي التكيف مع الواقع في تلك المناطق عبر آلياته وأدواته المتنوعة والمتعددة .

ولقد ظل الإسلام منذ أن ولج إلي هذه المناطق وهو في حركة دائمة ودائبة ، لا يكف عن الانتشار والانتقال من بلد إلي بلد ومكان إلي مكان ، متجاوزاً الأجناس والأعراق وحتى اللغات واللهجات .

تركز الإسلام في منطقة أفريقيا جنوب الصحراء الكبرى في نيجريا والسنغال وغينيا ومالي والنيجر والسودان وزنجبار والصومال وإريتريا وتنزانيا وموريتانيا ، وهناك تركزات اقل في ليبريا وغانا وتوجو ، وتوجد تركزات إسلامية اقل واحدث في تشكليها في كينيا وأوغندا وملاوي وزامبيا والكنغو .

المبحث الثالث

دخول أجناس مختلفة إلي الإسلام

أدى التطوران السابقان المتعلقان بسرعة الانتشار ، والانتشار في كافة الاتجاهات إلي أن دخل في الإسلام أجناس مختلفة بما تملكه تلك الأجناس من حضارات وثقافات ، وهنا تجلت عظمة الإسلام وقدرته الفريدة ، فلم يحدث أن تنافرت أو تصارعت تلك الأجناس بأرصدتها وتراكماتها الحضارية والثقافية ، ولكنها تآلفت في بوتقة الإسلام وتحت رايته ، ويمكن إيضاح ذلك في الآتي :

أولاً : عالمية الإسلام :

لقد جاء الإسلام إلي جميع الناس ، فلم يخصص قوماً دون آخرين ، فهو الدين الذي فُطر عليه كافة الخلائق ، ومن ثم فلم يكن مستغرباً دخول أجناس شتى إلي الإسلام ، فكلهم معنى به ومخاطب بأحكامه وتعاليمه .

وعمومية الخطاب في الإسلام تعنى أن الإسلام يتجاوز الحدود ، حدود الجنس وحدود اللغة ، وحدود الحضارات والثقافات ، حيث أنه في النهاية يجمع الجميع في بوتقة واحدة هي الحضارة والثقافة الإسلامية .

ومنذ ظهوره — وكما سبق وأوضحنا — أنتشر الإسلام في كافة الاتجاهات وضم في حظيرته جميع الأجناس ، وبالرغم من التباينات التي برزت بين تلك الأجناس ، إلا أنها ائتلفت جميعها في كنف ذلك الدين الذي هذب طموحاتها وشذب خصوصياتها وكسر حدة ذاتيتها ، ليصبح للمجموع طموح واحد وخصوصية مشتركة وذاتية عامة هي الذات الحضارية للإسلام ومنطقه الثقافي الخاص .

ثانياً : الإبداع للجميع :

إذا كان الإسلام هو دين جميع الناس ، ومن حق كل إنسان أن يعتنقه ، وهذا ما حدث في بداية الدعوة ولا يزال يحدث في كل مكان من العالم ، فإن من حق كل مسلم بغض الطرف عن جنسه وموطنه أن يعطي للإسلام وأن يبدع باسم الإسلام .

وقد وضح ذلك خلال القرون الأربعة عشرة الماضية من عمر هذه الدعوة ، فقد حقق المسلمون جميعاً دون نظر إلي جنس أو موطن ، حققوا النصر لذلك الدين ونشروه في كل ربوع الأرض ، وأقاموا حضارته وعمقوا وأصّلوا ثقافته ، وكان كل ذلك في النهاية هو تراث الإسلام وإسهام الإسلام وسيظل كذلك ، فالجميع شريك في هذه الحضارة والكل مساهم في هذه الثقافة .

ثالثاً : دوام العطاء والإسهام :

إن مقدرة الإسلام علي الديناميكية أو الحركية والانتقال الدائم من جنس إلي آخر من خلال الدعوة يجدد دماء ذلك الدين ، ويحفز الأقوام التي تدخل في رحابه علي العطاء والإسهام ، ومن ثم يصبح الإسلام دائماً مصدر وحي وإلهام لجميع الوافدين عليه والمعتنقين له .

رابعاً : ثراء الحضارة الإسلامية :

بالرغم من أن للحضارة الإسلامية ذاتيتها وخصوصيتها وتميزها ، إلا أنها في ذات الوقت قد ازدادت ثراءاً من خلال الحضارات التي اجتمعت في كنفها وانصهرت في بوتقتها وازدادت كذلك تنوعاً .

المبحث الرابع

الإسلام ينتشر بحضارته وثقافته

لقد دخل الإسلام علي الأجناس والمناطق – التي سبق تفصيلها – مصطحباً معه حضارته وثقافته ، فلم يكن الإسلام في يوم ما صدى لأفعال وأقوال الآخرين ، ولكنه كان دائماً يملك ما يقول ولديه ما يفعل ، والتفصيل فيما يلي :

أولاً : الإسلام انتشر بحضارته :

لم ينتشر الإسلام كدين فقط وعبادات ونسك فحسب ، ولكنه انتشر كحضارة ونسق حياة لديه مفهومه الخاص للحضارة ، ويملك مقومات وعناصر حضارة ذات شخصية مستقلة ومتفردة ، أهتم بإعمار الأرض وأعتبر ذلك في عداد العبادة ، هكذا كانت حضارة الإسلام .

ثانياً : الإسلام انتشر بثقافته :

وكما انتشر الإسلام بحضارته انتشر كذلك بثقافته ، فالإسلام يملك منطقاً ثقافياً خاصاً به يضمنه أحكامه وطروحاته تجاه كافة أشكال النشاط الإنساني من سياسة واقتصاد وإدارة .. الخ ، لم يدع أمراً من الأمور في حياة الإنسان إلا وتناولها بالترتيب والتأصيل في منطق ثقافي خاص مستمد من الشريعة ، وهكذا كانت ثقافة الإسلام .

الفصل الرابع

الدعوة إلي الإسلام وأهمية ذلك

للحضارة الإسلامي في الوقت الراهن

نبتدر هذا الفصل بالتساؤل التالي : هل لا تزال الدعوة إلي الإسلام ونشره تمثل أهمية للحضارة الإسلامية في وقتنا الراهن ؟ وهذا السؤال بدوره يسلم إلي سؤال آخر مؤداه : هل هناك حضارة إسلامية راهنة ! أو بعبارة أكثر دقه هل الحضارة الإسلامية مجرد ماضي أو تراث، أم أنها يمكن أن تمثل واقعاً ملموساً معاشاً ! ويمكن أن تمثل كذلك مستقبلاً نأمل أن تعيشه أجيالنا القادمة ! ! .

للأسف إن كثيرين يتعاملون مع الحضارة الإسلامية كتراث فحسب وكماضي فقط ، ومعنى ذلك أننا لا نملك إلا ماضياً ولا نعيش إلا علي اجترار ذكرياته ، ولا نملك أكثر من ذلك ، فنحن إذن لا نملك هوية قائمة حاضرة وماثلة ، بل نستمد هويتنا مما فات وكان ، إذن فمن نحن الآن ! ! نحن مسلمون ، كان لنا حضارة ، أما الآن ، فهل لا تزال تلك الحضارة تعيش معنا وتمثل هويتنا ، أم انقطعت صلتها بنا ومضت مع صانعيها وروادها ولم يبق منها إلاّ ذكراها كتراث ! ! .

في هذا الفصل نحاول أن نناقش جملة من الأفكار والتساؤلات الشائكة ذات الشجون ، والتي تنصب في جلها علي واقعنا الحضاري كمسلمين ، ثم كيف يمكن للدعوة إلي الإسلام ونشره أن يظل كما كان علي أهميته وحيويته كمقوم وعنصر حاسم في الحضارة الإسلامية في الوقت الراهن ! ! ، ويتضح ذلك من خلال المباحث الأربعة التالية :

المبحث الأول : الدعوة بين الأمس واليوم .

المبحث الثاني : الدعوة كمقوم من مقومات الحضارة الإسلامية بين الأمس واليوم .

المبحث الثالث : هل هناك حضارة إسلاميـــة قائمة وفعـــالة .

المبحث الرابع : ضرورة التحرك الإسلامي لتضمين الدعوة الإسلامية محتواها الحضاري .

المبحث الأول

الدعوة بين الأمس واليوم

نقصد بالدعوة في هذا الموضع الدعوة إلي الإسلام ونشره في ربوع الأرض ، ونقصد بـالأمس، حال بزوغ الإسلام وانبعاث الرسـالة ، ونقـصد بـاليوم ، مـا نعايـشه مـن واقـع معاصـر ، وهناك بالفعل اختلاف وتباين شاسع بين واقـع الـدعوة إلـي الإسـلام عنـد بـزوغ الإسـلام وواقع الدعوة في عالم اليوم ، وأسباب ذلك عديدة وكلها في حاجـة إلـي إيـضاح وتبيـان ، حتى يمكن لنـا تلمـس المخـرج مـن المـأزق الـذي وضـع فيـه المـسلمون أنفـسهم بنكوصـهم وتقاعسهم ، ولنحاول مناقشة تلك الأسباب في الآتي :

أولاً : طبيعة الدعوة :

عندما بزغ الإسلام وبدأ يشق طريقه نحو الانتشار والذيوع كان يملك زخماً وقوة لا تقارن ، فهو دين جديد والجميع يبتغـى مـن ورائـه الحـول والقـوة ، ويبتغـى لـه في ذات الوقـت التمكين والسيطرة ، ولم يكن أحد يعرف عن ذلك الدين شيئاً يذكر إلا أهله والمبـشرين بـه ، ولم تكن له سوابق خبرة يمكن أن يعتد بها أو يقاس عليها .

وكانت وسائل وآليات الدعوة عند ظهور الإسلام تجمع بين التبشير والانتشار السلمي وبين الفتح ، وكان الأسلـوبان يعملان معاً جنباً إلـي جنـب ، وأحيانـاً يتبـادلان المواقـع وفـق الظروف والتطورات .

وكان الدين يحمل من التعاليم والأحكام والقـيم والطروحـات مـا يكفـل تنظـيم كافـة أمـور الحياة، وكانت جميع المجتمعات التي دخلها الإسلام تفتقد هذه المنظومة التي كانـت في زمانها الأكثر تقدماً ورقياً علي الإطلاق ، وتتوق إلي اعتناقها ووضعها موضع التطبيق .

كذلك كان الدين الجديد هو المتنفس الأخير والملاذ النهائي لقطاع عريض من أبناء المجتمعات التي كانت في ذلك الزمان ، عبر ما جاء به من قيم وآفاق أرحب لحياة الإنسان الروحية والمادية .

أما في وقتنا الراهن فقد اختلف الحال ، فالدين الإسلامي الآن عمره يتجاوز الأربعة عشر قرناً، وقد ساد مجتمعات عديدة ، ولم يحتفظ بزخمه الأول وقوة دفعه التي بدأ بها ، وفي الوقت الراهن لا يمثل المسلم النموذج الأمثل الذي ينشده غير المسلم .

أما عن وسائل وآليات الدعوة فهي لم تعد مثلما كانت ، فهي الآن قاصرة علي الاجتهادات الفردية ، وحتى لو كان وراءها دول إسلامية فهي تتم علي استحياء مراعاة لاعتبارات ومواءمات دولية صارمة .

كذلك فقد باتت الطروحات والقيم والمبادئ الإسلامية عرضة لأن تقارن وتضاهى بأفكار إنسانية موضوعة ، وربما فضلت الأخيرة في بعض الأحيان ، وذلك في مجتمعات إسلامية تتخذ من الإسلام ديناً .

وهكذا كان اختلاف النظرة إلي الإسلام بمثابة العامل الحاسم في تغيير مسار الدعوة إليه والعمل علي نشره ، ولا شك في أن أبناء الإسلام أنفسهم هم المسئولون أولاً وأخيراً عن ذلك الاختلاف والتباين ، وسوف يتضح ذلك مما هو تالي .

ثانياً : طبيعة الدعاة :

الدعاة في فجر الإسلام ليسوا هم الوعاظ والخطباء ، ولكن الدعاة كانوا هم قواد الجيش وأمراءه والمقاتلين والفاتحين ، وكانوا هم التجار والعلماء ، فكلُ كان يدعو للإسلام من موقعه ، وعندما يؤدي هذه المهمة الجليلة يخيل للرائي أن هذا هو عمله الأوحد ومهمته التي لا يؤدي سواها .

لقد كان المسلم يهب عمره وحياته للإسلام ، يقاتل وينشر الدعوة ويعمل ، فقدم النموذج الذي جعل المخاطب بالدعوة يتوق إلي دخول الإسلام ، ولم يكن للمسلم هدف آخر ، ولم تتشبث نفسه بعرض زائل من هذه الحياة ، وكان يؤدي كل أعماله بصدق وإخلاص وتفان.

لقد كان المسلم في فجر الإسلام علي يقين من أنه محّمل بأمانة ، وأداء هذه الأمانة لا يتم إلا بإبلاغ الدعوة ، وأنه مخول من الرسول العظيم لأداء هذه المهمة ، ومن ثم فهو يبلغ وينشر الإسلام في كل عمل يؤديه ، يبلغ بالقول الحكيم الحصيف الواعي الذي يبشر بالإسلام وسماحته ورحابته ، ولا ينفر بالتزمت والجمود ، وكذا بالفعل والسلوك القويم .

أما في وقتنا الراهن فقد أصبحت الدعوة للإسلام عملاً ووظيفة ، والداعية عامل وموظف ، يدعو إلي الإسلام وربما يناقض بأفعاله ما يأتيه بأقواله .

لقد أصبح الداعية في شغل بعرض الحياة ، وتزاحمت علي كاهله المطالبات والمتطلبات، وتكالبت علي عقله وفكره الأهواء والتوجهات ، وبات ممزقاً بين مآرب الدنيا وواجبات الآخرة لا يدري إلي أيها يتوجه .

ثالثاً : طبيعة المجتمعات المتلقية :

وعند التحول إلي دراسة المجتمعات المتلقية للدعوة في فجر الإسلام ومقارنتها بالمجتمعات القائمة في عالم اليوم ، لوجدنا أننا أمام تحول كامل ومطلق ، فالمجتمع بالنسبة للدعوة هو مجالها الحيوي ، ومن ثم فهو يمثل عنصراً مهماً من عناصر نجاحها أو العكس .

وبالنسبة إلي المجتمعات التي كانت حال ظهور الإسلام ، فقد أتسمت بسمات عديدة لعل أهمها بساطة الأفكار المعتقدية وإمكانية التحول البسيط والسريع والمباشر من معتقد إلي آخر ، هذا فيما يخص القطاع الأكبر من المجتمع وهم العموم ، ومن ثم فقد كان

التأثير في معتقدات أفراد المجتمع أمراً ممكناً بل بسيطاً وبليغاً ، حتى فئة المعاندين والمكابرين من كبار القوم فقد كان الوصول إليهم ممكناً وتبليغهم الإسلام ومحاججتهم في قضاياه وأفكاره يحدث دائماً .

أما في عصرنا الراهن حيث وصل المجتمع البشري إلي ذروة التعقيد وقمة التشابك والتداخل في كافة القضايا المعتقدية والفكرية والحياتية ، فلم تعد الفرصة مهيأة بسهولة للدعوة والتبليغ بالأساليب والآليات التي كانت في أيام الإسلام الأولى .

لقد تزاحمت الأفكار البشرية الموضوعة بغثها وسمينها وصالحها وطالحها علي عقول الناس، وقُدّر لها أن تتحكم في تلك العقول وتسيطر عليها ، ولم تدع فرصة للدعوة الإسلامية لكي تنساب إلي تلك النهى فتخاطب فيها الفكر الرشيد والتدبر والتأمل .

كذلك حالت شكليات الحياة العصرية وترتيباتها وتنظيماتها دون الوصول إلي الناس علي كافة المستويات وتوجيه الخطاب إليهم فيما يتعلق بالإسلام والدعوة إليه ، ولم يعد في مقدور المرء أياً كان أن يتحدث في الدين إلا بشكل محدد ومن خلال قنوات معينة وتحت إشراف جهات معلومة .

فلا ينبغي أن نعتقد أن الأنظمة السياسية في الكثير من الدول وحتى في أمثلها أتباعاً لحرية الرأي والتعبير وأعرقها تطبيقاً لما يسمونه بالديمقراطية ، يمكن أن تسمح للدعوة الإسلامية أن تنتشر وللعقول أن تفكر بحرية وأن تعتقد ، فتلك مسألة تحسب وفق حسابات دقيقة وموازنات ومواءمات تقوم علي اعتبارات داخلية وإقليمية ودولية ، ومحاذير وضوابط ترتكن علي أسس وقواعد معتقدية وفكرية ، أساسها الصراع والتنافس وهدفها السيادة والهيمنة وتغليب دين أو معتقد علي آخر .

المبحث الثاني

الدعوة كمقوم من مقومات الحضارة الإسلامية بين الأمس واليوم

هدفنا المقصود من هذا العرض هو الدعوة بوصفها مقوماً من مقومات الحضارة الإسلامية ، فالثابت مما قدمنا أن الدعوة كانت أحد المقومات المهمة من مقومات الحضارة الإسلامية عند بزوغ فجر الإسلام ، ولكن ما هو الوضع اليوم ؟ هل لا تزال الدعوة تمثل مقوماً من مقومات الحضارة الإسلامية ؟ نوضح ذلك من خلال الآتي :

أولاً : الدعوة كانت مقوماً وعنصراً من مقومات وعناصر الحضارة والآن هي دين فقط :

أوضحنا بشيء من التفصيل أن الدعوة إلي الإسلام كانت في عهوده الأولى تمثل مقوماً وعنصراً من مقومات وعناصر الحضارة الإسلامية ، وأوضحنا كذلك أن ذلك المقوم كان علي درجة كبيرة من الأهمية ، ويحتل موقعاً متقدماً في سلم ترتيب مقومات تلك الحضارة ، وقد احتلت الدعوة هذه المكانة انطلاقاً مما للإسلام من دور غير محدود وتأثير مطلق في تشكيل الحضارة الإسلامية وتفعيلها .

فالإسلام يشكل في الحضارة الإسلامية الأساس والأصل الذي تشتق منه مقوماتها وعناصرها ، وكذلك يمثل الإسلام لتلك الحضارة المصدر والمنبع الذي تستمد منه منطلقات حركتها وديناميات فعالياتها ، وتستلهم منه أخيراً غاياتها وأهدافها ، ومفاد ما تقدم أن الإسلام بالنسبة للحضارة الإسلامية هو كل شئ ، يصنع أساس الصرح ويتوج قمته .

وفي الوقت الراهن تبدّلت الظروف وتغيرت الأوضاع ، فلقد تم إفراغ الدعوة إلي الإسلام من محتواها الحضاري ، وباتت الدعوة إلي الإسلام دعوة إليه كدين وليس كحضارة ، ولم يعد الإسلام قوام الحضارة كما كان من قبل ، ولم يعد يتجاوز كونه ديناً ، والإيمان به أمر واجب بل فريضة ، والدعوة إليه جائزة وبشروط وضوابط ، وسبب كل ذلك أنه لم يعد

هناك حضارة تمثل الإسلام ماثلة وقائمة ومُعاشه ، ولكن كانت هناك حضارة إسلامية ، ولم يصل إلينا منها إلا الآثار والحفائر ، ولم يتبق منهـــا إلا التاريخ والتراث .

ثانياً : كان الإسلام حياة وعبادة ، أما الآن فهو عبادة فقط :

يتمم ما تقدم أن الإسلام كان حياة كاملة للمسلم ، يتناول كل شئونه وأموره بالترتيب والتنظيم وفق طروحات ورؤى خاصة تنبع من شرع الله وتبتغي رفعة دينه ، وكانت مهمة المسلم أن يعمل عقله في وضع تلك الطروحات والرؤى علي أرض الواقع ، ويجتهد من أجل الالتزام بالأساسيات والأصول ، ومن ثم فقيام المسلم بواجباته نحو إعمار الأرض وتفعيل الحياة وفق الطرح الإسلامي وعبر تنظيمات ذات صبغة إسلامية كل ذلك لا ينفصل بحال عن الإسلام كعبادة وكشعيرة ونسك ، فالمسجد كان في فجر الإسلام للعبادة وتدارس شئون الحياة وتدبير أمورها ، بل إن إعمار الحياة واستثمار الأرض كان عبادة في ذاته .

أما الآن فقد أنفصل الإسلام الذي يحي به الناس ويدبرون معايشهم ويصرفون أمورهم عن الإسلام الذي يؤدون به شعائرهم ومناسكهم ، فالأول حل محله الفكر البشري الموضوع وطروحاته المعتمدة في تشكيلها وإفرازها علي العقل الإنساني دون مرشد أو كابح أو زاجر من قيم أو ضوابط أو وازعات ، أما الثاني فقد ضاق نطاقه وانحصر في العبادات والمناسك دون سواها وأصبح الإسلام هو العبادة .

لم يعد الإسلام حياة وعبادة ، والحياة جاء الإسلام لتنظيمها وترتيبها وضبط وقائعها وإيقاعاتها وتفاعلاتها بما يتضمنه من طروحات ورؤى ، وكذا بالشعائر ، وما الحضارة إلا زهرة الحياة ، والآن أبتعد الإسلام عن الحياة ، وهكذا أُريد له ، ومن ثم لم يعد يفرز الحضارة وينتج المدنية، بل تقوقع وتشرنق عن الحياة وانحصر في النسك والعبادة .

المبحث الثالث

هل هناك حضارة إسلامية قائمة وفعالة[1] ؟ [إحالة]

هذا السؤال لابد أن يفرض نفسه بعد ما قدمنا من حزمة التحـولات الـتي تؤشـر إلـي مـآل الدعوة الإسلامية بوصفها مقوماً وعنصراً من عناصر الحضـــارة ، فإذا كان حال الدعوة قـد تغير وتبدل، فإن الحضارة لابد أن تتبعها وجوداً وعدماً ، فالدعوة ضاق نطاقهـا ، وحتـى في هذا النطاق الضيق المحدود لم تعد تعنـى إلا الـدين في معنـاه الـضيق والنـسك في معنـاه المباشر ، ومن ثم فلم تعـد تحمـل في طياتهـا وثناياهـا الحـضارة كمـا كانـت ، فالحـضارة الإسلامية لم تعد إلا تاريخاً وتراثاً، والمسلمون يعيشون علي هذا الماضـي يجـترون ذكرياتـه ويسترجعون أمجاده .

[1]. أرجع إلي الجزء السابع من هذا المجلد ، الحضارة الإسلامية في المعترك .

المبحث الرابع

ضرورة التحرك الإسلامي

لتضمين الدعوة الإسلامية محتواها الحضاري

إذا كان الإسلام والمسلمون يعيشون علي ماضيهم الحضاري ، فهم الآن يملكون رصيداً يحتاج إلي التفعيل والتحريك ، ولابد من التحرك في اتجاه تضمين الدعوة الإسلامية محتواها الحضاري ، ويستلزم ذلك التحرك إلي الكثير من الحيثيات والمسلمات والقناعات التي تمثل المنطلقات المؤدية إلي استثمار الحركة وتوظيف دينامياتها ، كما يتطلب أيضاً إلي آليات وأدوات خاصة لتضمين الدعوة الإسلامية محتواها الحضاري ، ويكفي في الوقت الراهن التوصل إلي الحيثيات والمسلمات والقناعات ، أما بالنسبة إلي آليات وأدوات الحركة فهي تنصرف إلي المستقبل أو الأجل الطويل ، ومن ثم فالمسلمات والقناعات نأتي عليها الآن ، في حين نرجئ تناول آليات وأدوات الحركة إلي الفصل التالي المبحث الثالث ، وذلك من خلال الآتي :

أولاً : الوقوف علي حقيقة الواقع الإسلامي الذي يفيد التخلي عن الذات الحضارية للإسلام والتبعية للآخرين :

أول القناعات التي ينبغي أن يدركها أبناء الإسلام أنهم قد تخلوا عن ذاتهم الحضارية ، وأصبحوا للآخرين تبعاً ، وهذه حقيقة لا مراء فيها ، ولا ينبغي لأبناء الإسلام أن يطيلوا الجدل بخصوصها، ويهدروا وقتهم وجهدهم في سبيل التثبت والتيقن منها ، بل ينبغي أن ينصرفوا إلي ضرورة البحث عن المخرج من هذا الكهف المظلم .

ثانياً : التيقن من صعوبة الموقف :

القناعة الثانية التي ينبغي علي أبناء الإسلام إدراكها هي أن موقفهم غاية في الصعوبة ، وأن المخرج من هذا الموقف لن يكون أمراً سهلاً ، بل يتطلب المزيد من الجهد والوقت والتصميم والعزم ، وكل ذلك يعنى تضحيات جسام علي كافة المستويات وفي جميع الاتجاهات .

ثالثاً : التنبه إلي أهمية الدعوة الإسلامية لبعث وتأكيد الذات الحضارية للإسلام :

القناعة الثالثة التي ينبغي علي أبناء الإسلام إدراكها هي أن الدعوة الإسلامية تمثل حجر الزاوية في عملية بعث وتأكيد الذات الحضارية للإسلام ، وأن عملية البعث ينبغي أن تبدأ من الآن ، وأن آثارها ونتائجها لن يقدر لها الازدهار والإيناع إلاّ علي الأجل الطويل وفي المستقبل البعيد .

الفصل الخامس

الدعوة إلي الإسلام وأهميتها لمستقبل

الحضارة الإسلامية

القناعات الثلاثة التي ختمنا بها الفصل السابق تعد بمثابة المنطلقات التي تنطلق منها الدعوة الإسلامية من أجل رسم مستقبل الحضارة الإسلامية ، ويتبلور ذلك المستقبل في بعث وتأكيد الذات الحضارية للإسلام من خلال تضمين الدعوة الإسلامية محتواها الحضاري ، ومن هنا تتضح العلاقة العضوية المباشرة بين الدعوة الإسلامية والحضارة .

وإذا كان تاريخ الحضارة الإسلامية يوضح كيف كانت الدعوة قوام الحضارة وصلبها ، فإن الواقع المعاصر يثبت من خلال مسلمات وقناعات راسخة أن الدعوة لها الأهمية المطلقة في قيام الحضارة ووجودها كواقع ، وأن ما أصاب الدعوة من تبدل وتحول أدى إلي اضمحلال الحضارة الإسلامية ، ثم إن مستقبل هذه الأخيرة يحتم العمل من الآن علي تضمين الدعوة الإسلامية محتواها الحضاري .

والعمل من أجل مستقبل الحضارة الإسلامية ليس بالأمر البسيط الميسر ، ولكنه يحتاج إلي بذل جهود جبارة ، وإثارة قضايا غاية في الحساسية والأهمية ، وسوف نحاول في هذا الفصل الاقتراب من إشكالية مستقبل الحضارة الإسلامية ، ومس جملة القضايا التي تتضمنها تلك الإشكالية ، وذلك من خلال المباحث الثلاثة التالية :

المبحث الأول : صعوبة الحركة على مستوى العالم الإسـلامي

[النموذج الكلي للممارسة] .

المبحث الثاني : ضرورة التحرك على مستوى الوحدة السياسية

[تفعيل النموذج الجزئي للممارسة] .

المبحث الثالث : وسائل وآليات تضمين الدعوة الإسلامية محتواها الحضاري .

المبحث الأول

صعوبة الحركة علي مستوى العالم الإسلامي

[النموذج الكلي للممارسة]

الإدعاء بإمكانية تحويل العالم الإسلامي إلي كتلة واحدة وقوة موحدة تعيد للإسلام طابعه الأولي وسماته التي بدأ بها عبر مصادره الأصلية إدعاء من الصعب القول به ، ومن الأصعب وضعه علي محك التجربة ، ولعل أسباب ذلك معروفة للجميع ، ولكننا سنقوم بالتذكير بها مرة أخرى وليست أخيرة ، لأن الذكرى تنفع المؤمنين ، ويتم ذلك من خلال الآتي :

أولاً : ظهور النعرات القومية وتبلور ظاهرة " قومية الإسلام " :

قدمنا سلفاً وفي شبه إسهاب كيف بزغ الإسلام في منطقة شبه الجزيرة العربية ، وكيف انطلق منها في سرعة خاطفة ليعم أرجاءً واسعة ويغطي مساحات شاسعة من الأرض ، ويقر في قلوب وعقول أجناس وأخلاط من البشر لم يرد في مخيلة أحد أن يجتمعوا جميعاً علي أتقي قلب رجل واحد ، وكان السبب وراء ذلك هو أن الإسلام قد دخل إلي قلوب وعقول هذا المزيج من البشر بفطرته وبساطته كما جاء من عند الحق تبارك وتعالى دون أن يعتريه فكر بشري أو يلحقه طرح أنساني .

تمم ما تقدم ورافقه اتفاق وتوافق كافة الأجناس وجميع الأقوام التي عمها الإسلام علي العطاء والبذل من أجل رفعة ذلك الدين وإعلاء شأنه دون أي مأرب أو مطمح شخصي ، وساهمت كل الأمم بإيثار لا نظير له في بناء الحضارة الإسلامية ، وتشكيل المنطق الثقافي للإسلام ، متجاهلة تماماً مأثوراتها وإرساباتها القومية ذات الخصوصية التي تركتها مع

ماضيها قبل مجيء الإسلام ، وأضحى الإسلام بوتقة أعادت صهر الخصائص الأثينية أو العرقية مع الذاتية الحضارية والثقافية الخاصة به ليخرج في النهاية ذاتاً حضارية إسلامية ومنطقاً ثقافياً إسلامياً يلغي ذاتية الشعوب ويتجاوزها ويفرض شخصية جديدة مستقلة .

إلا أن هذه المرحلة الذهبية الزاهرة من تاريخ الإسلام لم تستمر ، إذ سرعان ما بدأت قوة الدفع والحافزية الخاصة بالإسلام في الخفوت والوهن ، وأدى ذلك إلي تآكل الرابطة التي كانت تربط العالم الإسلامي وتشده إلي بعضه ، وبدأت كل أمة تتحدث عما قدمت للإسلام من إسهام وإنجاز وعن دورها وأهمية وجودها في كنف ذلك الدين ، واستيقظت ربما عن عمد أو غير عمد أمجاد وطموحات الماضي الغابر ، وطفت علي السطح إرسابات التميزات والفروق الأثينية والقومية ، وتباعدت الشقة بين أبناء الإسلام ، وباتت الفرصة مواتية بين الأخوة أبناء الإسلام لتدخل الغرباء والدخلاء وبلغ السيل الزبى ، وأخذ أبناء كل قومية يرفعون عقيرتهم مرددين أنه لولا وجودهم في كنف الإسلام لما قامت له قائمة ، وأنهم يمثلون بالنسبة إلي الإسلام إضافة عظيمة ، وتناثرت الكتابات والأدبيات السوداء التي بدت بوضوح نعراتها القومية ، فأنقسم الإسلام إلي فرق وشيع ذات طابع قومي أثيني أو عرقي .

ثانياً : بروز النعرات الطائفية وتبلور ظاهرة " طائفية أو مذهبية الإسلام " :

سبق تبلور النعرة القومية وربما صاحبها بروز ظاهرة المذهب أو الطائفة في الإسلام ، وقد ارتبطت هذه الظاهرة عضوياً ببداية ظهور الطرح الإسلامي فيما يتعلق بأوجه النشاط البشري، وإعمال العقل وتمكينه من استنباط الطروحات التي تنظم حياة الإنسان وتصرف شئونه من مصدري الشريعة الإسلامية القرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة ونماذج الممارسة العملية في دولة الرسول الكريم وخلفائه الراشدين .

فالمذهبية في الإسلام إذن ارتبطت أساساً بالاجتهاد ، وتعدد الطروحات المقدمة من مجتهدي المسلمين ومفكريهم إزاء القضايا المستجدة والإشكاليات المتغيرة المرتبطة بتطور الحياة والمجتمع البشري ، وحول كل طرح أو اجتهاد تجمع المشايعون والمؤيدون والمستحسنون ، وفي مقابله تجمع كذلك المناوئون والمعارضون والمستهجنون ، وهكذا تعددت الفرق والمذاهب .

وتهيأت الفرصة مرة أخرى للمرجفين لكي يطلقوا افتراءاتهم علي الإسلام وأهله ، مصورين إياه علي أنه قضايا متناثرة محل خلاف بين أبنائه ومعتنقيه ، وفتّ ذلك في عضد الرابطة التي تربط بين أبناء الإسلام ، وبالفعل اتسعت الشروخ بين المسلمين ، وتطورت بأساليب وأشكال غريبة ومقززة .

وكان أن التقت النعرات القومية العرقية مع النعرات الطائفية المذهبية ، فزاد الطين بلة ، وباتت قوميات وأعراق بذاتها تعتنق مذاهب بعينها ، وأصبح حال الأمة يرثى لها ، وتاهت الأكثرية عن جادة الصواب وسبيل الرشاد ، ولم تُجد المحاولات التي بذلت من أجل جمع الشمل ولم الشعث وصار كل حزب بما لديهم فرحون ، وركدت الدعوة الإسلامية ، واستحال الأمر من دعوة إلي الإسلام الحنيف وشرع الله العظيم إلي دعوة إلي المذهب والفكرة الطائفية ، وبارت حضارة الإسلام وأُهدرت ثقافته ، وراجت أفكار المذاهب وغلا ثمنها، وكانت النكبة علي الإسلام وأبنائه .

ثالثاً : ظهور النزعات السياسية وتبلور ظاهرة " الإقليمية " :

وعلي أثر النعرات القومية التي استشرت ، والصيحات الطائفية التي انتشرت ، وفي عهود متأخرة ، ضعفت السيطرة المركزية للدولة الإسلامية ، ظهرت النزعات السياسية وتبلورت بصحبتها ظاهرة " الإقليمية " وسعت كل قومية إلي الاستقلال بحيز جغرافي معين يضاهي

حدود ما كان قائماً قبل مجيء الإسلام ، وظهرت النوايا ذات الطبيعة القومية واضحة جلية في الرغبة في الاستقلال السياسي عن جسد الدولة الإسلامية ، وتمزقت دولة الإسلام إلي وحدات سياسية تزامن مع ظهور الوحدة القومية أي الدولة في أوربا ، وظهرت الدول الإسلامية بشكلها التي هي عليه الآن .

ورسّخ من هذا التفتيت وأرسى دعائمه القفزة التي قفزتها دول أوربا الصاعدة في ذلك الوقت علي منطقة العالم الإسلامي ، فقدمت تلك الدول لهذه الهجمة بتوطئة فكرية تحت دعوى ما سمى " بالاستشراق " ، استهدفت من ورائها الوقوف علي حقيقة آخر التطورات والمتغيرات في منطقة العالم الإسلامي ، وتقويض ما يمكن من أسس ودعائم الحضارة والثقافة الإسلامية من خلال تغذية وتأجيج نيران النعرات القومية والطائفية ومن ثم النزعات السياسية ، وتركت المنطقة في حالة تمزق وتفتت وإنهاك لم تمكنها من التصدي للهجمة الأوربية الشرسة .

وأنتهي الأمر بالدولة الإسلامية إلي مجموعة من الدويلات تقع معظمها تحت سيطرة الدول الأوربية ، وعندئذ توقفت الحضارة الإسلامية عن العطاء والثقافة عن النتاج ، وهما لا تزالا في انتظار البعث والإحياء ، لتبدأا من جديد ويتواصل العطاء الحضاري والثقافي للإسلام .

رابعاً : بروز الاختلافات الفكرية والمنهجية :

في ثنايا ما تقدم من ظهور النعرات القومية والطائفية والنزعات السياسية الإقليمية وبصحبتها وبتشجيع وتزكية من مصادر دخيلة وأخرى مريبة ، طفت علي سطح الحياة الفكرية والعقلية في العالم الإسلامي وفي هذه المرحلة الحرجة من تاريخه بالذات حزمة من

الاختلافات والخلافات الفكرية والمنهجية بين مفكريه وعلمائه وصناع الرأي فيه ، ويمكن التطرق إلي هذه الحزمة من الاختلافات والخلافات ذات الطبيعة المنهجية فيما يلي :

❖ الاختلاف حول مصادر الطرح الإسلامي :

يعلم الجميع أن الإسلام يقدم رؤية خاصة تعنى بتنظيم وترتيب جميع أوجه نشاط الإنسان وحركته في الكون ، وذلك من خلال طروحات يتولى الراسخون في العلم من مفكري الأمة وعلمائها استنباطها من مصادر معينة ومحددة بالذات والصفات وهي القرآن الكريم والسنة المطهرة ونماذج الممارسة العملية في دولة الرسول الكريم وخلفائه الراشدين من بعده.

وكان أول الخلافات والاختلافات التي دبت بين أبناء العالم الإسلامي في فترة التفكك والانهيار وتوقف العطاء الحضاري حول مصادر ذلك الطرح ، وإزاء ذلك برزت ثلاثة أراء :

- الرأي الأول : يرى في المصادر المذكورة أنها الأصل والأساس دون غيرها لاستنباط الطروحات الخاصة بتنظيم الحياة بكافة جوانبها ، وأن ذلك هو نهج الإسلام الأصيل ونبعه الصافي وطريق الله القويم ولا يمكن الحيد عن هذا السبيل .

- الرأي الثاني : وكان صريحاً ووقحاً ، ويرى أن هذه المصادر لم تعد تناسب تطورات الحياة ومستجدات المجتمع البشري ، واتجه إلي الاعتماد علي مصادر دخيلة روج لها الوجود الأوربي في العالم الإسلامي ! .

- الرأي الثالث : وكان خجولاً ومتردداً ، ويرى عدم التخلي عن المصادر الإسلامية المذكورة ، ونادى في ذات الوقت بضرورة تطويرها ومواكبتها لمتغيرات الأيام ومستجدات

العصر ، وأبتكر لفك طلاسم هذه المعادلة تطعيمها بمصادر أخرى مساندة ومعاونة وأوربية بالطبع ! .

❖ تباين الطروحات :

أما عن الطروحات ذاتها فقد عايش العالم الإسلامي تبايناً واختلافاً شديداً ، حيث سادت الطروحات الواردة من الغرب المسيطر علي المنطقة في ذلك الوقت ، ومالت كافة الشعوب بمستوييها الشعبي والحكومي الرسمي إلي تلك الطروحات ، واعتبرت أن ذلك هو التقدم والرقي ، وأن غيره هو التخلف والتأخر ، وتعالت الصيحات التي نادت بالاتجاه إلي أوربا والطرح الغربي لتنظيم وترتيب أوجه الحياة في المجتمعات الإسلامية لإنقاذها من التخلف والجهل موعزة سبب ذلك إلي الطرح الإسلامي .

وعلي الجهة المقابلة صمدت فئة قليلة ظلت علي تمسكها بالطرح الإسلامي ، ولكنها لم تتمكن من مواصلة الصمود في وجه التيار العاتي لأصحاب ومروجي الطروحات الغربية ، بسبب الخطأ الجسيم التي وقعت فيه تلك الفئة المخلصة عن غير عمد ، حيث لم يجتهدوا من أجل تطوير وتطويع وتوفيق الأدوات والآليات التي يمكن للطرح الإسلامي أن يتعامل بها ومن خلالها مع تطورات العصر ومستجدات الزمن ، وهذا ما ينبغي أن يقوم به مفكرو الإسلام بشكل دائم ودائب وفي كل زمان ومكان ، حتى يأمنوا بوائق ما حدث للفئة المخلصة التي استمسكت بالطرح الإسلامي أساساً للحياة ومنهجاً .

❖ الاختلاف حول التنظيم :

نعنى بالتنظيم في هذا السياق الشكل والآلية التي يتم عن طريقها نقل الطروحات من إطارها وطورها الفكري إلي الواقع العملي ، وهنا أيضاً حدث خلاف حاد يضاهي نظيره المتعلق بالطروحات ، حيث أنقسم مفكرو العالم الإسلامي إلي فريقين :

– الفريق الأول رأي ضرورة الاستعانة بالطرح الغربي ومعه أدواته وآلياته التنظيمية ، تحت دعوى التجانس بين الطرح وأدواته ، وكان في ذلك صريحاً وواضحاً ، وأنفذ غرضه وحقق ما نادى به ، حيث كان بجانبه الساسة وصناع القرار في المجتمعات الإسلامية ، الذين بهرهم وأخذ عقولهم ما قدمه أصحاب هذا الرأي من أدبيات حول نمط الحياة السياسية والاقتصادية والاجتماعية والثقافية والإدارية والفكرية في الغرب .

– الفريق الثاني رأي حتمية الاستعانة بالطرح الإسلامي ومعه أيضاً أدواته وآلياته ، ليس بدعوى التجانس بين الطرح وأدواته ، ولكن بدعوى الالتزام والتمسك بتلابيب الشرع الحنيف نصاً وفصاً وشكلاً وموضوعاً ، ومرة أخرى يجانبه الصواب ، حيث يفشل بشكل ذريع في تطوير ومواءمة الأدوات والآليات التنظيمية التي تناسب العصر وتلائم الواقع .

❖ **الاختلاف حول الغاية والهدف :**

أخيراً كان هناك بين مفكري العالم الإسلامي الاختلاف حول الغاية والهدف من الطرح ومن أدواته وآلياته التنظيمية .

فكان الفريق الذي رأى في ضرورة الاستعانة بالطرح الغربي وأدواته التنظيمية يهدف إلي تحقيق التقدم والرقي والنهوض بالمجتمعات الإسلامية ، ولعل آخر ما يصبو إليه هو تحقيق ما أسموه " بمجتمع الرفاهة " .

أما الفريق الذي استمسك بالطرح الإسلامي وحار في تلمس الأدوات والآليات المناسبة ، فقد أفلح في تحديد أهدافه وغاياته حيث جاءت متجانسة مع الطرح الإسلامي ومصادره ، فقد أوضح هذا الفريق أن هدفه وغايته هو تحقيق الحياة الطيبة للمجتمع المسلم كغاية وسيطة ومرحلية إلي غاية أخرى نهائية هي عبادة الله والعمل بكتابه ، حيث أن هذه هي الغاية التي من أجلها خلق الله الإنسان وسخر له موجودات الكون وذلل له مخلوقاته.

خامساً : قوة عوامل الطرد والتفريق في مقابل ضعف عوامل الجذب والتوفيق :

كان من شأن ما سبق أن يقوى عوامل الطرد والتفريق بين أبناء العالم الإسلامي ، ويضعف من تأثير عوامل الجذب والتوفيق ، وبات العالم الإسلامي ماضٍ لا محالة إلي التفتت والتمزق .

أن ما آل إليه حال العالم الإسلامي من تفتت وتمزق وضعف الأواصر والروابط بين دوله وشعوبه ، يجعل من الصعوبة بمكان التحرك علي مستوى العالم الإسلامي ، من أجل العمل علي تضمين الدعوة الإسلامية محتواها الحضاري اللازم لمستقبل الحضارة الإسلامية ، ويفرض في ذات الوقت علي المهتمين ضرورة تلمس الحركة علي مستوى آخر ، وذلك ما سوف نتناوله في الجزئية التالية .

المبحث الثاني

ضرورة التحرك علي مستوى الوحدة السياسية

[تفعيل النموذج الجزئي للممارسة]

إذا كان التحرك علي المستوى الكلي — وكما سبق الإيضاح — قد اعتراه العديد من المعوقات والمصاعب ، مما جعله في عداد المستحيل ، علي الأقل في الوقت الراهن ، فقد بات من الضروري بل والمحتم علي أبناء العالم الإسلامي الاتجاه إلي التحرك علي مستوى الوحدة السياسية وتفعيل النموذج الجزئي للممارسة ، وقد يبدو ، هذا هو الواقع أن الاتجاه نحو التحرك علي مستوى الوحدة السياسية هو اتجاه جبري تفرضه الظروف والأوضاع التي ألّمت بالعالم الإسلامي ، وتزكيه الرغبة الملحة في إنقاذ الدعوة الإسلامية كمقوم للحضارة الإسلامية مما حاق بها من ركود ونكوص .

والتحرك علي مستوى الوحدة السياسية فيما يتعلق بتضمين الدعوة الإسلامية محتواها الحضاري ، يعنى توجيه الاهتمام للدولة الإسلامية بوصفها الوحدة الأساسية في كيان العالم الإسلامي ، وبدء العمل من هذه الوحدة ، ثم نقل التفعيل عبر أسلوب المحاكاة إلي الوحدات الأخرى ، حتى يعم التفعيل كافة كيان العالم الإسلامي ، وإذا كان العمل يبدأ من الوحدة الأساسية وهي الدولة ، فإن لذلك منهجه ونظامه وأسسه التي يستند إليها ، وله كذلك آلياته ووسائط نقله ، ويمكن متابعة ذلك من خلال التفصيل التالي :

أولاً : كيف يتم اختيار الوحدة الأساسية [النموذج] :

اختيار الوحدة الأساسية التي تمثل النموذج ليس أمراً يسيراً أو عشوائياً ، ولكنه ينبغي أن يتم بناءً علي معايير ومقاييس محددة ، وتتجسد أهم تلك المعايير والمقاييس في الآتي :

المبحث الثالث

وسائل وآليات تضمين الدعوة الإسلامية محتواها الحضاري

تتم عملية تضمين الدعوة الإسلامية محتواها الحضاري من خلال الوحدة السياسية النموذج عبر مجموعة من الوسائل والآليات تتمثل في الآتي :

أولاً : التذكير بالمفهوم الإسلامي للحضارة :

أول آليات تضمين الدعوة الإسلامية محتواها الحضاري تتمثل في إصدار الأدبيات والطروحات التي تهدف إلي التذكير بالمفهوم الإسلامي للحضارة ذلك المفهوم ذي الخصوصية والتميز ، وهنا تقترن الدعوة إلي الإسلام في شموله وعموميته بطرح منهج الإسلام في تعريف الحضارة ومصادر ذلك التعريف وأصوله وتطور ذلك المفهوم عبر التاريخ الإسلامي .

ثانياً : العودة إلي المصادر والأسس الإسلامية :

الآلية الثانية الخاصة بتضمين الدعوة الإسلامية محتواها الحضاري تتمثل في العودة إلي المصادر والأسس التي تُستنبط وتُشتق منها الطروحات الخاصة بالحضارة والثقافة الإسلامية ، وهي المتمثلة في عقيدة التوحيد والقرآن والسنة ونماذج الممارسة العملية في دولة الرسول الكريم وخلفائه الراشدين .

ثالثاً : الرجوع إلي عناصر ومقومات الحضارة الإسلامية :

أما الآلية الثالثة الخاصة بتضمين الدعوة الإسلامية محتواها الحضاري فتتمثل في الرجوع إلي عناصر ومقومات الحضارة الإسلامية ، التي نستخلصها من التاريخ الإسلامي ، ولا تزال تملك المقدرة علي العطاء والإسهام في الحاضر والمستقبل ، ويتعين أولها في الدعوة

إلي الإسلام ونشره ، ثم في صياغة التنظيم ، ثم في تشكيل النظام الاجتماعي ، ثم في تأسيس الجيش ، ثم في التخطيط العمراني والعمارة والتشكيل ، وأخيراً في العلوم الطبيعية وتطبيقاتها .

رابعاً : الدعوة إلي الأهداف والغايات :

وتتجسد الآلية الأخيرة المتعلقة بتضمين الدعوة الإسلامية محتواها الحضاري في الدعوة إلي أهداف وغايات الحضارة الإسلامية ، وهي المتمثلة في الغايات الأبدية الخالدة التي ترى في الحضارة وسيلة وسيطة ومرحلية ، تستهدف إقامة الحياة الطيبة وإعمار الكون ، تمهيداً للغاية النهائية التي هي عبادة الله ، تلك الغاية التي من اجلها خلق الله الإنسان وسخر له الكون بموجوداته ومخلوقاته .

لقد أفضنا في الحديث عن الدعوة إلي الإسلام ونشره كمقوم وعنصر من عناصر ومقومات الحضارة الإسلامية ، والآن ننتقل إلي تناول المقوم أو العنصر الثاني من مقومات وعناصر تلك الحضارة ، ويتمثل ذلك المقوم في صياغة التنظيم .

والتنظيم في هذا الموضع عبارة عن مدرك عام وشامل ، ينصرف إلي الآلية أو الأداة التي تنقل الأفكار من طور النظر والفكر إلي واقع العمل والحركة ، وبعبارة أكثر دقة فالتنظيم هو آلية أو أداة التعامل مع الواقع فيما يتعلق بأشكال وصور النشاط الإنساني .

والتنظيم بمفهومه السابق كعنصر من عناصر الحضارة الإسلامية كان له وقع خاص وطابع مميز عند بزوغ تلك الحضارة شأنه في ذلك شأن أي عنصر أو مقوم آخر ، فكيف إذن كان شكل التنظيم ومهمته في ثنايا الحضارة الإسلامية عند بروزها مرتبطة بالإسلام الحنيف .

وإذا كان للتنظيم كمقوم وعنصر من عناصر الحضارة الإسلامية أهميته لتلك الحضارة منذ نشأتها ، فهل استمر للتنظيم دوره وفعاليته في الوقت الراهن ، وإذا كان التنظيم الإسلامي قد تخلى عن دوره وأهميته ، فما هي الأسباب التي أفضت به إلي الانزواء والاضمحلال ؟ .

ولما كان أبناء الإسلام تواقين إلي إعادة الحياة والازدهار لحضارتهم ، فالتنظيم يعد في طليعة المقومات والعناصر التي ينبغي استثارتها وتفعيلها ، فكيف يمكن تفعيل التنظيم الإسلامي وإعانته علي القيام بدوره من أجل مستقبل مشرق للحضارة الإسلامية ؟ .

في هذا الباب نتناول صياغة التنظيم كمقوم وعنصر من عناصر الحضارة الإسلامية ، وذلك من خلال الفصول الأربعة التالية :

الفصل الأول : المقصود بصياغة التنظيم كعنصر من عناصر الحضارة الإسلامية .

الفصل الثاني : صياغة التنظيم في فجر الحضارة الإسلامية .

الفصل الثالث : وضعية صياغة التنظيم كمقوم من مقومات الحضارة الإسلامية في الوقت الراهن .

الفصل الرابع : صياغة التنظيم ومستقبل الحضارة الإسلامية .

يقصد بالتنظيم ـــ كما ألمحنا لتونا ـــ تلك الأشكال والبنى والهياكل التي يتم تشكيلها بهدف نقل الطروحات الخاصة بتنظيم وترتيب أوجه النشاط الإنساني من طورها الفكري إلي واقع الفعل والحركة .

من التعريف المتقدم يمكن تحليل التنظيم كعنصر من عناصر الحضارة الإسلامية ومقوم من مقوماتها من خلال مفرداته التالية :

أولاً : التنظيم ذو طبيعة عامة شاملة :

التنظيم كمقوم من مقومات الحضارة الإسلامية إن هو إلا إجراءً وتدبيراً عاماً وشاملاً ، فهو فعل وحركة وليس فكراً ، وذلك لا يعنى أن لا تسبق التنظيم عملية إعداد نظري لكيفية إجرائه وتشكيله والتفصيل فيما يلي :

❖ فالتنظيم إذن إجراء وتدبير ، بما يعنى التعامل مع الوقائع والتطورات داخل المجتمع الإنساني .

❖ والتنظيم ذو طبيعة عامة ، والعمومية التي تنعت التنظيم تجعله أيضاً ذا طبيعة فوقية ، يأتي من أعلي ، حيث تفرضه الدولة بما لها من صلاحيات ومسئوليات ترتيب حياة الناس داخل المجتمع وتصريف شئونهم .

❖ كما أن التنظيم ذا طبيعة شاملة ، وشمولية التنظيم تعنى استيعابه لكافة أمور وشئون الحياة ، وبتحليل العلاقة بين التنظيم كآلية والطرح الإسلامي كتصور لكيفية ترتيب الحياة الإنسانية ، يتبين أن هذه العلاقة هي علاقة ارتباطيه عضوية ، مفادها أن الطرح هو الأصل والأساس ، وأن التنظيم هو الفرع والجزء ، والأخير ضروري لوضع الأول موضع التطبيق ، وينتج عن هذه العلاقة أن التنظيم يكتسب صفة الشمولية من الطرح الذي جَنّد من أجل وضعه موضع التطبيق .

ثانياً : التنظيم أشكال وبنى :

التنظيم الذي نتناوله بوصفه عنصراً ومقوماً من مقومات الحضارة الإسلامية إن هو إلا أشكالاً وأبنية تم تشكيلها لأغراض محددة ، وقد كانت هذه الهياكل والتنظيمات علي درجة عالية من الدقة والإحكام ، وكانت بالتالي شكلاً من أشكال الحضارة والمدنية الإسلامية في كافة البلدان التي فتحها المسلمون ورسخوا فيها حضاراتهم ومدنيتهم .

ويثور في هذا الصدد تساؤل علي درجة عظيمة من الأهمية ، مفاده : هل التنظيم الإسلامي يجد أصوله وأسسه في مصادر الطرح الإسلامي المتعارف عليها ، والتي سبق ذكرها ، وهي القرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة ، أم أنه ابتكار أنساني صرف ، تم التفكير فيه وإنشاؤه لأداء مهمة بعينها وبما يتواءم مع متغيرات الواقع وظروف الحياة ؟ .

واقع الحال أن مصادر الطرح الإسلامي المشار إليها لم تتعرض بدقة وإحكام لأشكال وصور التنظيم ، ولم تشأ أن تحدد قوالب جامدة تصطدم بالمتغيرات والمستجدات ، بل تركت صياغة وتشكيل تلك الأبنية والتنظيمات لاجتهادات أبناء المجتمع الإسلامي بحيث يمكنهم مواءمتها مع ظروفهم وتطورات مجتمعاتهم .

إلا أنه ولإتمام الحقيقة ينبغي الإشارة إلي أن بعض أشكال الطرح الإسلامي قد ساهمت باستنباط بعض الخطوط العريضة والمبادئ الأساسية الخاصة بالتنظيم من مصادر الطرح الإسلامي ، وهذه الخطوط والمبادئ تعد من الرواسخ والثوابت التي لا يعتريها التغيير ولا يلحقها التعديل .

ثالثاً : التنظيم آلية تربط بين الثقافة والحضارة :

التنظيم في الحضارة الإسلامية بشكل عام ، سواء كانت في الماضي أو الحاضر أو حتى المستقبل هو عبارة عن آلية وأداة ربط بين الثقافة والحضارة ، فالتنظيم أداة لنقل الطرح

إذا كان التنظيم ــ كما سبق الإيضاح ــ هو آلية الإسلام للتعامل مع عناصر وجود الإنسان داخل المجتمع البشري ، وتنظيم اوجه نشاطه وحركته في الكون ، فإنه كذلك عنصر من عناصر الحضارة وشكل من أشكالها وذو تأثير بليغ علي عناصر أخرى .

ويعد التنظيم من أول العناصر والمقومات التي ارتكزت عليها الحضارة الإسلامية ، وارتبط عضوياً بنشأة الدولة الإسلامية وتطورها ، ولقد مر التنظيم بتطورات عديدة تحاكي نفس التطورات التي مرت بها الدولة الإسلامية وحضارتها ، ويمكن متابعة تطور التنظيم كعنصر من عناصر الحضارة الإسلامية من خلال المباحث الثلاثة التالية :

المبحث الأول : التنظيم في دولة المدينة .

المبحث الثاني : التنظيم في البلاد المفتوحة .

المبحث الثالث : ضعف التنظيم وانعدام تأثيره الإيجابي على الحضارة الإسلامية .

المبحث الأول

التنظيم في دولة المدينة

دولة المدينة هي الدولة الإسلامية الأولى التي أنشأها الرسول الكريم علي اثر هجرته إليها من مكة المكرمة ، وقد ارتبط تأسيس الدولة أول ما ارتبط بالتنظيم ، ولكن ليس لنقل طرح معين من الطور الفكري النظري إلي الواقع العملي ، بل لنقل التشريع الإلهي المباشر الذي يأتي به الوحي إلي تجارب عملية وممارسات واقعية ، ففي هذه المرحلة لم يكن ثمة مجال للطرح بل هناك تشريع مباشر عن طريق الوحي ، وهذا التشريع واجب التطبيق ، ومن هنا فقد كان دور التنظيم ذو طبيعة خاصة ، فهو أداة نقل التشريع الإلهي إلي أرض الواقع وبين البشر ، ثم هو كذلك تشكل بمعرفة المشرع الثاني بعد الحق تبارك وتعالى وهو الرسول الكريم مباشرة، ويعمل تحت إشرافه .

وبدأ التنظيم يباشر دوره الحضاري في الدولة الإسلامية منذ وصول الرسول الكريم إلي يثرب، وتمثل أول صور وأشكال التنظيم في المسجد ، الذي أنشأه الرسول ، وكان بمثابة دار العبادة والمجلس الشورى الذي تُناقش فيه كافة أمور الدين والدنيا ، وتعقد فيه جلسات التشاور والتداول واتخاذ القرارات بكافة أشكالها ومستوياتها .

هكذا كان التنظيم عند ميلاد الدولة الإسلامية متمثلاً في المسجد ، وكان الأخير وحدة كلية ذات شمولية وعموم في الوظيفة والهدف ، وقد ظل للمسجد ذلك الدور بوصفه مؤسسة تنظيمية ذات أهداف متعددة ، وكان أول سمات ذلك التنظيم هو بساطته ، وجمعه بين أمور الشعيرة والشريعة والعبادة والعادة ، ومن هنا نبعت وترسخت أهم خصائص الإسلام وهي وحدة الدين والدنيا وتلازمهما بلا انفصال .

وهذه التحولات في دور المسجد كتنظيم لم تحدث بشكل فجائي ، ولكنها أخذت الشكل المتدرج ، حيث تم إدخال صور وأشكال متعددة من التنظيم ذات الطبيعة السياسية والإدارية والاقتصادية والمالية والقضائية .. الخ .

وهذا التحول في وضعية المسجد كمؤسسة تنظيمية متعددة الأدوار لم يقتصر علي مركز الدولة الإسلامية سواء كان في المدينة المنورة أو في دمشق مركز الخلافة الأموية أو في بغداد مركز الخلافة العباسية ، ولكنه امتد ليشمل كافة أقاليم الدولة الإسلامية ، إلا أنه قد بدأ من المدينة المنورة مركز الدولة الإسلامية الأولى ، ثم انتقل إلي حواضرها في البصرة والكوفة والفسطاط والقيروان وواسط وبغداد وسامراء وقرطبة ودمشق .. الخ .

ثانياً : استحداث مؤسسة الخلافة بتنظيماتها المختلفة :

واصل التنظيم كمقوم وعنصر من عناصر الحضارة الإسلامية تطوره ، ومن ثم تأثيره علي شكل وجوهر تلك الحضارة ، حيث قفز إلي مؤسسة الخلافة بكافة ملحقاتها وتوابعها التنظيمية ، وقد تم ذلك عبر منطلقات جاءت كالتالي :

❖ ظل الخلفاء الراشدون يستعملون المسجد كدار للإدارة ومقر للتشاور والتداول وصنع القرار ، وقد تأسوا في ذلك بالرسول الكريم ، وبالرغم من أن المسجد ظل يؤدي دوره السياسي في عهد الخلافة الراشدة ، إلا أنه من الناحية التنظيمية والمعنوية بدأت الخلافة تتبلور في شكل مؤسسي مستقل ولكن بتدرج وبطء .

❖ وفي عهد معاوية بن أبي سفيان مؤسس الدولة الأموية أصبحت الخلافة مؤسسة تنظيمية ، بما جعلها أحد أشكال ومعالم الحضارة الإسلامية ، حيث أتخذ معاوية داراً للإدارة ، تطورت إلي قصور غاية في الأبهة والفخامة في العصرين الأموي والعباسي ، ولا

يهمنا من ذلك إلا الخلافة كمؤسسة تنظيمية ، تحددت مهمتها في نقل الطرح الفكري الإسلامي فيما يتعلق بأصول السياسة والحكم من طوره النظري إلي واقع عملي .

❖ الوزارة كإحدى ملحقات وتنظيمات مؤسسة الخلافة : أفاضت مصادر الطرح الإسلامي فيما يتعلق بأصول السياسة والحكم والإدارة العامة فيما يخص مسألة الوزارة ، بما يفيد بشكل قاطع أن الوزارة هي شأن إسلامي صرف لا إسهام فيه من دخيل ولا قول إزاءه من أجنبي .[1]

ولا يعننا في هذا السياق إلا الوزارة كتنظيم وكشكل من أشكال الحضارة الإسلامية ، فالدور الوظيفي الفعلي إذن هو المهم وليس المضمون الاصطلاحي للكلمة ، ووفق هذا التوجه فقد أتخذ الرسول الكريم من أبي بكر الصديق وزيراً له أو نائباً وكان يُعرف بالرديف ، وكذلك كان شأن عمر بن الخطاب مع أبي بكر الصديق حال خلافته بعد انتقال الرسول الكريم إلي الرفيق الأعلى ، ثم كان ذلك أيضاً شأن عثمان بن عفان مع عمر بن الخطاب حال توليه أمر المسلمين بعد أبي بكر الصديق .

ولم تتبلور بوضوح الطبيعة التنظيمية للوزارة كإحدى ملحقات وتوابع مؤسسة الخلافة في عهد الخلافة الراشدة ، وذلك لاندماجها في المؤسسة الأم من ناحية ، ولعدم اهتمام الخلفاء الراشدين بالتنظيم باعتباره شكلاً وليس جوهراً من ناحية أخرى ، ثم لطبيعة الخلفاء الراشدين القائمة علي التبسط والزهد من ناحية ثالثة .

إلا أنه مع بداية العصر الأموي وتبعه العصر العباسي بدأت الوزارة تتبلور كتنظيم من تنظيمات مؤسسة الخلافة ، بل وعظم دورها في العصر العباسي بشكل طاغ ومؤثر علي صناعة القرار وتسيير دفة الحكم ، وبصفة خاصة في العصر العباسي الثاني .

---

[1]. انظر للمؤلف ، موسوعة الدرر الزاهرة في الأصالة المعاصرة ، المجلد الثالث ،الإدارة العامة والمحلية في الإسلام ، الجزء الثاني ، الإدارة المحلية في الإسلام .

، فإذا كان تنظيم الخلافة علي قدر يعتد به من الإحكام والرصانة ، فقد يغلب علي بقية أشكال التنظيم في الدولة الإسلامية نفس الصفات أو قدر كبير منها ، ومؤدى ذلك أن مؤسسة الخلافة كتنظيم تبث خصائصها وتنشر سماتها ، إن لم يكن بشكل تلقائي ، فبشكل لا يخلو من الإلزام في كافة أشكال التنظيم بالدولة ، والمقارنة تثبت هذا الاستخلاص ، ولعل هذا يدل بدوره علي خاصية تماسك وواحدية عناصر التنظيم بالدولة ومن ثم بالحضارة الإسلامية .

وإذا كانت الخلافة تنظيم قيادي ريادي يهتم بالتعامل مع عناصر الوجود وأشكال النشاط الإنساني علي مستوى التشكيل والتوجيه والتأثير ، فإن الدواوين هي تنظيم إداري تنفيذي يهتم بالتعامل أيضاً مع عناصر الوجود وأشكال النشاط الإنساني ، ولكن علي مستوى التنفيذ والإنجاز لأهداف مؤسسة الخلافة ولمصلحة المجتمع ، ومن ثم فالدواوين كانت بمثابة تنظيم بيني يتخلل ثنايا المجتمع ويسرى بين أوصاله ، يحمل الأهداف ويعزم علي تحقيقها .

وينبغي أن يفهم أن الدواوين ليست إحدى التنظيمات التابعة لمؤسسة الخلافة ، ولكنها تنظيمات اجتماعية علاقتها بمؤسسة الخلافة علاقة ارتباط عضوي لها إدارة خاصة ، ولكنها تقع تحت رقابة وإشراف ومتابعة مؤسسة الخلافة ، ولا تنأى كذلك عن رقابة المجتمع ، وقد ينتهي بنا ما تقدم إلي القول بأن الدواوين تمثل الجهاز الإداري في الدولة الإسلامية .

والدواوين كتنظيمات قد تتداخل أو تتشابه من حيث الشكل والوظيفة مع تنظيمات وُجدت علي غرارها في البلاد التي فتحها المسلمون ، أما من حيث خصوصية الإدارة وذاتية الأهداف والغايات فهي إسلامية الأصل والمنبع والمنشأ ، وذلك حتى نوفر علي

أنفسنا الخوض في مسألة أصل نشأة هذه التنظيمات : هل هي مستعارة من الغير أم نابعة من الذات الحضارية للإسلام وتعبر عن خصوصيته في التنظيم والإدارة .

وعلاقة الدواوين بتنظيم الكتابة كتنظيم فرعي تابع لمؤسسة الخلافة علاقة قوية ، ولدينا قناعة بأن تنظيم الكتابة هو أصل الدواوين ، ويعد تطويراً وظيفياً وتنظيمياً لها ، انتهى به الأمر إلي الاستقلال والتنوع في الشكل والموضوع والوظيفة ، إلا أن مؤسسة الخلافة ظلت محتفظة لنفسها ببعض الكّتاب التي أصبحت فيما بعد دواوين ، ولكنها تابعة لها ، انطلاقاً من ارتباط وظيفتها عضوياً بتلك المؤسسة .

ومنذ عهد الرسول الكريم والدواوين لها وجودها ووظيفتها في الدولة والمجتمع الإسلامي، ولكن في شكل تنظيمي بسيط لا يتعدى الكاتب والقرطاس والقلم ، وهذه الثلاثية البسيطة تطورت فيما بعد وبصفة خاصة في عهد عمر بن الخطاب ، ليضاف إليها الشكل أو الهيكل والسمة ، والشكل أو الهيكل يعنى المكان وتوزيع التبعات والمهام وإجراءات وتدابير القيام بها، ثم سمى كل ذلك بالديوان .

وتطورت الدواوين تطوراً سريعاً وعميقاً ، شمل العدد والوظائف والتنظيم وطريق العمل ، وأثّر ذلك بدوره علي دور التنظيم وأثره كمقوم وعنصر من مقومات وعناصر الحضارة الإسلامية ، ففي العصرين الأموي والعباسي تعددت الدواوين وتنوعت مجالات عملها ووظائفها بشكل أثّر علي تنظيم الحياة وترتيب تعاملات وتفاعلات الإنسان مع عناصر الوجود ، وكذا أوجه نشاطه وحركته داخل المجتمع الذي يعيش فيه .

رابعاً : ازدواجية التنظيم بين المركز والإقليم :

مع اتساع رقعة الدولة الإسلامية وترامي أطرافها دعت الحاجة إلي ضرورة وجود تمثيل لمؤسسة الخلافة بالأقاليم والمناطق المختلفة ، وقد قاد ذلك إلي نوع من الازدواجية في

سعد بن أبي وقاص وأبو عبيدة بن الجراح والحجاج الثقفي ، وفي سوريا كان هناك معاوية بن أبي سفيان ، وفي مصر كان هناك عمرو بن العاص وعمر بن عبد العزيز ، وفي المغرب والأندلس وصقلية كان هناك طارق بن زياد وموسى بن نصير وعقبة بن نافع وأسد بن الفرات ، وكان لهؤلاء الأفذاذ دورهم المهم في النهوض بأقاليمهم من خلال التنظيم بكافة أشكاله وأساليبه .

خامساً : التضخم والتعقيد النسبي للمؤسسات التنظيمية :

خلال العصور الثلاثة التي تمثل مرحلة القوة بالنسبة للدولة الإسلامية وحضارتها ، وهي عصر الخلافة الراشدة والعصر الأموي والعصر العباسي ، وصل التنظيم إلي أعلى درجاته وأرفع مراتبه في الإحكام والترتيب والتأثير علي مسار وتطور الحضارة الإسلامية ، وحتى وصل التنظيم إلي تلك الدرجات والمراتب فقد مر بمراحل عديدة من التطور ، وخلال تلك المراحل اتسم التنظيم بسمتين لعلهما الأهم علي الإطلاق بالنسبة إلي سياق تحليلنا المتعلق بتأثير التنظيم علي الحضارة الإسلامية كمقوم وعنصر من عناصرها ، ويمكن تناول هاتين السمتين في الآتي :

- لقد اتسم التنظيم خلال تطوره بالتعقيد ، في الحجم ، وعلاقته بأجزائه ، وفي مهامه وتبعاته، وفي آلياته ، وغاياته وأهدافه ، والمفارقة الملفتة في هذا الصدد ، أن تعقيد التنظيم قد ارتبط بالإحكام والرصانة والترتيب ، ولم يؤد إلي عدم الانضباط وعدم السيطرة علي حركة التنظيم وتفاعلاته ومرد ذلك إلي جملة القيم والمبادئ الإسلامية التي يرتكز عليها التنظيم والتي تمثل بالنسبة له الضابط والمقوّم بشكل مستديم .

- كذلك ارتبط تعقيد التنظيم بتعاظم تأثيره علي الحضارة الإسلامية ، ويبدو في هذا المقام أن التعقيد بالنسبة للتنظيم كان يعنى نوعاً من النضج والوعي بدوره وتأثيره علي الحضارة

، مما أدى إلي بروز العلاقة بين تعقيد التنظيم وتعاظم تأثيره علي الحضارة علي أنها علاقة طردية .

سادساً : مدى تأثر التنظيم الإسلامي بحضارات البلاد المفتوحة :

الإشكالية التي أثارها الكثير من الباحثين وبصفة خاصة من غير المسلمين ، والمتعلقة بمدى تأثر التنظيم الإسلامي بحضارات البلاد المفتوحة ، هي في الواقع إشكالية مصطنعة ، الغرض من اختلاقها الإيحاء بأن فضل المسلمين في التنظيم محدود ، إذا لم يكن غير موجود علي الإطلاق ، وأن التنظيم كان قائماً أصلاً في البلاد التي فتحوها ونشروا فيها الإسلام ، وهم لم يفعلوا أكثر من إقرار تلك الأشكال التنظيمية ، بل ونقلها إلي بلادهم الأصلية التي جاءوا منها ! ، وهذا الأمر في الواقع يحتاج إلي التدقيق والتحقيق ، ولعل في إعادة استقراء التاريخ الإسلامي ما يفيد في إحراز هاتين الغايتين ، وذلك علي الوجه التالي :

❖ بالفعل كان ثمة نماذج من التنظيم في البلاد التي فتحها المسلمون ونشروا فيها الإسلام ، وتلك النماذج كانت وثيقة الصلة بالأنماط الحضارية والأنساق الثقافية الخاصة بتلك البلاد، وكانت تمارس مهامها وتحقق أهدافها وفق تلك الأنماط والأنساق .

❖ لقد استشعر المسلمون بحاستهم السياسية والإدارية العلاقة القوية والارتباط العضوي بين التنظيم الذي وجدوه قائماً في البلاد المفتوحة وبين أبناء تلك البلاد واعتمادهم عليه في تصريف شئونهم وتدبير أمورهم ، كما استشعروا كذلك كفاءة الكثير من تلك التنظيمات في القيام بدورها وأداء مهامها .

❖ لم يشأ المسلمون تدمير حياة أبناء البلاد المفتوحة بتخريب تلك التنظيمات ، بل عمدوا إلي التطويع والتحوير التدريجي لها ، كما لم يلجئوا إلي فرض أشكال وأنماط

❖ وهذه العلاقة التبادلية القوية بين الدعوة الإسلامية والتنظيم تعنى تأثر كل منهما بالآخر ، وهذا ما حدث منذ نهاية العصر العباسي الثاني ، وضعف الدولة الإسلامية سياسياً واقتصادياً وإدارياً وعسكرياً ، إذ ترتب علي هذا الضعف المتعدد الأبعاد والجوانب ، والمتعدد أيضاً في نتائجه وأثاره ، أن انعدمت قوة دفع الدعوة الإسلامية ، وضعف ترتيباً علي ذلك التنظيم في كافة أجزاء الدولة الإسلامية ، واستوى في ذلك المركز الرئيسي والحواضر التابعة له .

ومن المفارقات الجديرة بالتبيان والإيضاح في هذا الصدد أن تنظيمات الأقاليم كانت تبدو قوية ومحكمة ، ودليل ذلك رغبة تلك الأقاليم في الاستقلال عن مركز الدولة الإسلامية ، ونجاحها في ذلك في كثير من الأحيان ، وتحقيق ذلك أن تنظيمات تلك الأقاليم لم تكن بالقوة والصلابة والإحكام التي تمكنها من الاستقلال والانفصال ، ولكن مركز الدولة كان من الضعف والوهن بما لم يمكنه من السيطرة عليها ، وواقع الحال أن التنظيم في الأقاليم كان في معظم الحالات ضعيفاً ومفككاً ومتأثراً بضعف المركز .

ثانياً : العلاقة بين ضعف التنظيم في المركز والأقاليم :

العلاقة بين ضعف التنظيم في المركز والأقاليم تحتاج إلي إيضاح ، نظراً لأهميتها من جهة ، وأهمية آثارها ونتائجها من جهة أخرى ، وتتضح أهمية تلك العلاقة وأهمية آثارها من خلال الآتي :

❖ لقد صاحب انحلال الدولة الإسلامية وضعفها مع نهاية العصر العباسي الثاني ضعف العلاقة بين المركز والأقاليم ، وتجسد ذلك الضعف في عدم تمكن المركز من إحكام سيطرته علي الأقاليم ، مما أدى إلي استقلال معظمها إن لم يكن رسمياً فواقعياً ، وإحكام السيطرة أشكاله متعددة تبدأ بالولاء السياسي وتنتهي بالإخضاع بالقوة .

يضاف إلي عجز المركز عن إحكام سيطرته علي الأقاليم عجزه كذلك عن تقديم العون اللازم لها اقتصادياً وعسكرياً وسياسياً بحسم الخلافات بين الزعامات الإقليمية [المحلية] من أجل السيطرة علي الحكم .

❖ كان التنظيم في الأقاليم يعاني من الضعف وعدم القدرة علي القيام بمهامه ووظائفه ، وانتشر الفساد وعمت الفوضى وانهارت القيم التي كان التنظيم يعتمد عليها في تسيير أعماله وإنجاز مصالح أفراد المجتمع .

ثالثاً : انعكاس ضعف وفساد التنظيم علي الحضارة الإسلامية :

أوضحنا سلفاً العلاقة القوية بين التنظيم والحضارة الإسلامية ، وكيف قاد التنظيم في الدولة الإسلامية الفتية في عصر النبوة والخلافة الراشدة والعصرين الأموي والعباسي إلي ازدهار الحضارة وإيناع المدنية في الدولة الإسلامية ، إلا أن العلاقة الطردية بين التنظيم والحضارة في الدولة الإسلامية أبرزت نتائجها وأفرزت آثارها كذلك عندما ضعف التنظيم وأصابه الفساد ، عندئذ وضح التأثير بليغاً علي الحضارة الإسلامية .

وتجسدت نتائج وإفرازات ضعف التنظيم وفساده علي الحضارة الإسلامية في ضعف العلاقة بين التنظيم والحضارة ، فلم يعد التنظيم بشكله المتهالك المتردي يؤثر علي الحضارة الإسلامية إلا سلباً ، ومن ثم فقد صار لزاماً علي الحضارة الإسلامية برصيدها الزاخر أن تتبرأ من التنظيم بشكله المخزي ، إلي أن انفصمت عرى التلاحم بين التنظيم والحضارة الإسلامية في عصر التفكك والانهيار .

الفصل الثالث

وضعية صياغة التنظيم كمقوم من مقومات
الحضارة الإسلامية في الوقت الراهن

منذ أن ضعفت الدولة الإسلامية وخارت قواها استتبع ذلك أن بدأت الحضارة الإسلامية هي الأخرى تفقد مقوماتها وعناصرها واحداً تلو الآخر ، فبعد أن تم تجميد الدعوة الإسلامية كمقوم من مقومات الحضارة الإسلامية استتبع ذلك تحييد التنظيم كمقوم آخر من مقومات الحضارة الإسلامية ، والتلازم والتتابع الذي اتسم به خروج هذين المقومين عن فلك تلك الحضارة مرجعه إلي العلاقة العضوية القوية بينهما – والتي سبق إيضاحها – ، ومرجعه أيضاً إلي كون هذين العنصرين من أكثر العناصر ديناميكية وحراكية في معترك تفاعلاتها ، وهما دائماً نقطة البدء ومنطلق المبادرة في بناء صرح الحضارة ، وهما بالتالي أول العناصر والمقومات التي تحتاج إلي قوة دفع وحفز دائمة ودائبة ، وأولها توقفاً عن الإسهام والعطاء في حالة الركود والتدهور ، وأكثرها وأشملها تأثيراً علي الحضارة سلباً وإيجاباً .

إذن فالتنظيم شأنه شأن الدعوة إلي الإسلام تأثر بضعف الدولة الإسلامية ، وارتد بالتالي للتأثير سلباً علي الحضارة الخاصة بتلك الدولة ، وظل ذلك هو حال التنظيم الإسلامي حتى وقتنا الراهن ، وحال التنظيم التي تبدلت من الإسهام والعطاء اللامحدود إلي السلبية والجمود تحتاج إلي إيضاح وتفصيل ، يمكن تناولها في المباحث الستة التالية :

المبحث الأول : فقد التنظيم لهويته الإسلامية .

المبحث الثاني : فقد أدوات وآليات الحركة والفعالية .

المبحث الثالث : فقد القيم الإسلامية الأصيلة .

المبحث الرابع : تنظيم بلا هدف أو غاية .

المبحث الخامس : الطابع القومي الإقليمي للتنظيم .

المبحث السادس : التنظيم الغربي يجتاح مناطق العالم الإسلامي .

المبحث الأول

فقد التنظيم لهويته الإسلامية

كانت الهوية الإسلامية هي أثمن وأهم ما يملكه التنظيم الإسلامي ، فهي عنوانه ومفتاح شخصيته ومحدد معالمه ، وعندما تدهورت حال التنظيم وافتقد التأثير الإيجابي لمصلحة الحضارة الإسلامية ، سبق ذلك فقده لهويته الإسلامية مما أفضى به إلي تلك النتائج ، فما هي المصادر والأصول التي اعتمد عليها التنظيم في التدثر بالهوية الإسلامية ؟ وكيف فقد ذلك الدثار مع فقده لتلك الهوية ؟ يمكن متابعة ذلك من خلال ما يلي :

أولاً : الأصول والمصادر :

التنظيم بالرغم من أنه في مجمله ليس إلا هياكل وأبنية تقوم بدور الناقل للطروحات الفكرية الإسلامية من طورها النظري إلي واقع عملي ، إلا أنه ينبعث من مصادر وأصول تمثل الخلفية العامة والبنية الأساسية له ولغيره من مقومات وعناصر الحضارة الإسلامية ، وهذه المصادر والأصول تتمثل في عقيدة التوحيد وفي الشريعة بأساسيها القرآن الكريم والسنة المطهرة وفي نموذج الممارسة العملية لدولة الرسول والخلفاء الراشدين .

فكان التنظيم يستمد من هذه المصادر شخصيته وعناصر وجوده وخصوصيته التي تميزه عن غيره من أشكال التنظيم الأخرى ، وكانت تلك الأصول والمصادر تترك بصماتها المميزة علي شكل الأبنية ، وطريقة تشغيلها ، والقيم التي تضبط سلوكها وتحكم علاقتها بأفراد المجتمع ، والأهداف التي تزمع تحقيقها .

ثانياً : الطروحات :

في مرحلة تالية لدولة الرسول الكريم ودولة خلفائه الراشدين ، لم يعد في مقدرة التنظيم أن يستمد هويته الإسلامية من الأصول والمصادر التي ذكرناها بشكل مباشر ، بل صار عليه

لزاماً أن يعتمد علي طروحات وإسهامات فكرية لعلماء المسلمين مستنبطة ومستمدة من الأصول والمصادر المذكورة ، وذلك نظراً لصعوبة الاستنباط من المصدر بشكل مباشر دون الرجوع إلي ذوى الاختصاص والراسخين في العلم .

وكان الاعتماد علي الطروحات سابقة الذكر كافياً لأن يحتفظ التنظيم الإسلامي بهويته وشخصيته الإسلامية ، وذلك للصلة المباشرة بين تلك الطروحات والأصول والمصادر الشرعية، وكان ذلك هو حال التنظيم الإسلامي في العصرين الأموي والعباسي .

ثالثاً : تأثير أصول ومصادر الشعوب المفتوحة علي التنظيم الإسلامي :

منذ بداية العصر العباسي الثاني بدأ فيما يتعلق بالتنظيم يدب صراع غير مخفي بين التنظيم بشكله وجوهره الإسلامي وبين الرغبة الكامنة لأبناء الشعوب التي فتحها المسلمون العرب في إضفاء شخصيتها المستمدة من أصولها الحضارية والقومية قبل مجيء الإسلام علي التنظيم الإسلامي ، وبدأ ذلك بسيطرة بعض العناصر الفارسية والتركية وغيرها علي الأشكال التنظيمية المعروفة في ذلك الوقت ، ثم شرعت تلك العناصر في البحث في تراثها الحضاري الغابر عما يمكن أن تدسه في ثنايا التنظيم الإسلامي من أشكال وآليات وقيم وأهداف تتصارع مع نظيرتها الإسلامية ، وعندئذ أصبح الصراع علنياً سافراً وحاداً في نفس الوقت ، وأدى ضعف الإدارة المركزية للدولة الإسلامية ، بالإضافة إلي سيطرة عناصر قوية من أبناء الشعوب المفتوحة علي مقاليد الأمور في التنظيم الإسلامي إلي غلبة الأصول والمصادر غير الإسلامية ، مما أدى في مرحلة أولى إلي مسخ التنظيم الإسلامي وتشويه صورته ، ثم ظهور تنظيم ينتمي كلية إلي الجذور والمصادر الحضارية والثقافية للبلاد المفتوحة في نهاية المطاف .

المبحث الثاني

فقد أدوات وآليات الحركة والفعالية

صاحب فقد التنظيم الإسلامي لهويته فقده كذلك لأدوات وآليات الحركة والفعالية ذات الطبيعة الإسلامية ، فأدوات وآليات الحركة هي التي تحرّك التنظيم وتمنحه القدرة علي الحركة والفعالية ، وتمكنه من نقل الطروحات المستنبطة من المصادر والأصول الإسلامية من طورها النظري إلي الواقع العملي ، ومعلوم أن هذه الأدوات والآليات هي صنيعة نماذج الممارسة العملية في دولة الرسول ودولة الخلفاء الراشدين ، فالأداة أو الآلية هي غالباً ما تكون نتاجاً للتجربة .

ففي الدولتين المذكورتين وُضعت أسس العديد من التنظيمات ، وتحقيق ذلك أن التنظيمات تفرزها كما سبق القول نماذج الممارسة العملية ، إذ ليس من المتاح دائماً استنباط آليات وأدوات حركة التنظيم من المصادر الشرعية الإسلامية ، ولو أنه من المحتمل الحصول علي ما شابه ذلك من بعض الطروحات في العصرين الأموي والعباسي ، كذلك فمن المتعارف عليه أن المصادر الشرعية كانت تعمد إلي ترك التشريع الخاص بتلك الآليات والأدوات فارغاً، لإفساح المجال لأبناء الأمة لإعمال عقولهم ولاحتواء المتغيرات والمستجدات التي يحملها التطور ويفرضها التغيير .

وعليه يمكن الانتهاء إلي أن أدوات وآليات الحركة الخاصة بالتنظيم الإسلامي قد تبلورت وتحددت بفعل عاملين : الأول ، نماذج الممارسة العملية التي انتقلت من دولة الرسول الكريم ودولة الخلفاء الراشدين ، تلك النماذج التي كانت نتاجاً للتطبيق المباشر للتشريع الإسلامي الذي قام به الرسول بنفسه وكذا خلفاؤه الراشدون المعتمد علي القرآن الكريم

والوحـي المنزل ، الثاني ، جهود مفكري الأمة وعلمائها خلال العصرين الأموي والعباسي والتي جمعت بين الطرح الفكري والتطبيق العملي .

والملاحظة الجديرة بالطرح في هذا الموضع هي أن آليات وأدوات حركة التنظيم أكثر عرضة للتغيير ، وأسـرع في التـأثر ، نظـراً لاعتمادهـا في الأسـاس علـي نمـاذج الممارسـة العمليـة والتجارب الواقعية الوقتية ، وتلك النماذج والتجارب من السهل محوهـا بانقـضاء زمنهـا وذهاب عصرها، ومن الأسهل استبدالها بغيرها بما يـوائم الـزمن ويواكـب العـصر ، فهـي أذن لا تستمد وجودها مـن مـصادر وأسـس شـرعية لهـا طـابع الرسـوخ والثبـات والأبديـة والخلود ، في حين أن الأصول والأسس وكذا الطروحات الخاصة بالتنظيم قـد تكـون أكثـر ثباتاً ورسوخاً أمام قوى التغيير والتبديل وذلك انطلاقاً مما تتـسم بـه في ذاتهـا مـن رسـوخ وثبات وكذا خلود وأبدية ، وهذا يجعل مـن الـسهولة بمكـان الرجـوع إليهـا في أي وقـت وإعادتها إلي موقعها الطبيعي من السمو والرقي .

ومثلما حدث لأصول وأسس التنظـيم الإسـلامي حـدث لأدوات وآليـات حركتـــه ، فمنـذ انتهاء العصر العباسي الأول وبدء العـصر العباسـي الثـاني بـدأت أدوات وآليـات التنظـيم الإسلامي تتعرض لعملية مسخ وتشويه كان هدفها هو التغيير والتبديل ، وكان تحقيق هـذا الهدف أسرع من تحقيق نظيره الخاص بالأسس والأصول وذلك راجع إلي الأسـباب الـتي أوضحناها لتونا .

وعن اتجاه التغيير وهويته فكان هو نفـس الاتجـاه الـسابق ، حيـث كـان يـسير في سـياق الرغبات الكامنة والنوايا المضمرة لأبناء القوميات التي دخلت إلي الإسلام عن طريق الفـتح ، وكانت هذه الرغبات والنوايا تحركها الإرسابات المستكنة في أعمـاق اللاوعـي لهـؤلاء ، وكانت تلك الإرسابات تنازعهم ولاءهم للإسلام الذي عاهـدوا الله عليـه ، وتحـرك لـديهم

شعور الكراهية والحقد والعداء لأبناء القومية العربية ، انطلاقاً من مكانتهم المميزة في السيطرة الدائمة علي مقاليد السياسة والحكم في الدولة الإسلامية .

وكانت الفرصة مواتية لأبناء القوميات غير العربية للقفز علي التنظيمات الإسلامية في كافة الحواضر ذات الثقل السياسي والاقتصادي ، بل وصل الأمر إلي مركز الدولة نفسه ، وأعملوا في تلك التنظيمات معاول الهدم والتخريب ، وكانت الدائرة قد دارت علي الأدوات والآليات بعد الأسس والأصول ، ولم يجد المسلمون الفرس والأتراك وغيرهم صعوبة في استبدال تلك الأدوات والآليات التي تحرك التنظيم وتفعلّه بأدوات وآليات أخرى تنبع من تراثهم الحضاري والثقافي ، وعندئذ بدأ التنظيم الإسلامي يفقد مقومات وجوده وعنصراً مهماً من عناصر العطاء للحضارة الإسلامية .

المبحث الثالث

فقد القيم الإسلامية الأصيلة

إضافة إلي الأسس والأصول وآليات وأدوات الحركة كمحاور للتنظيم الإسلامي ، كان هناك القيم الإسلامية الأصيلة كمحور آخر من محاور ذلك التنظيم ، والقيم هي تلك المثل والمبادئ السامية التي يراعيها التنظيم في حركته وتفاعلاته وتعاملاته مع البيئة المحيطة به وهي المجتمع .

ومنذ دولة الرسول الكريم زرع صلى الله عليه وسلم القيم الإسلامية في التنظيم بالرغم من بساطته كهياكل وأبنية ، وظلت القيم الإسلامية هي إحدى أهم خصائص وسمات التنظيم الإسلامي خلال العصرين الأموي والعباسي مروراً بعصر الخلافة الراشدة ، إلا أنه في نهاية العصر العباسي الثاني بدأ التنظيم الإسلامي يعاني من فقد قيمه الإسلامية الأصيلة تدريجياً ، وجاء ذلك ترتيباً علي ما تم بخصوص الأسس والمبادئ والأدوات والآليات .

وإذا كانت الردة الشعوبية التي قام بها أبناء البلاد المفتوحة إعملاً لإرسابات عرقية بعيدة عن قيم الإسلام ، إذا كانت تلك الردة قد أتت علي التنظيم بادئة بأسسه وأصوله ثم بأدواته وآلياته ، فلم يُقّدر للقيم أن تفلت من هذا الهجوم الداهم ، وسعى أبناء البلاد المفتوحة في كافة الحواضر الإسلامية إلي إفراغ التنظيم الإسلامي من محتواه القيمي الرفيع ، وظل التنظيم في تلك الأمصار شكلاً بلا روح وهيكلاً بلا مضمون .

وبعد انهيار الخلافة العباسية بشكلها النهائي وتردي أحوال الدولة الإسلامية كان حال التنظيم أشد وطأة من الدولة ذاتها ، ففي جميع الدويلات التي أنفرط عقدها من دولة الإسلام كان حال التنظيم فيما يتعلق بالقيم التي ينتصب عليها لا يتجاوز أحد وضعين :

أولاً : الوضع الأول :

كان هناك شق من التنظيم ظل بدون قيم ، وانعكس ذلك علي دوره ووظيفته في المجتمع ، إذ تحول من وسيلة لتحقيق الأهداف والغايات إلي عبء ثقيل أثقل كاهل أفراد المجتمع من جراء تسلط وفساد تلك التنظيمات .

ثانياً : الوضع الثاني :

كان هناك شق أخر من التنظيم أدخل القيم التي تعود في أصولها وجذورها إلي التراث والإرساب الحضاري والثقافي لأبناء الشعوب المفتوحة ، وربما كانت هذه التنظيمات أخف وطأة من الشق الأول .

المبحث الرابع

تنظيم بلا هدف أو غاية

كانت دائماً أهداف التنظيم الإسلامي منذ بزوغ فجر الإسلام غاية في السمو والرقي ، فللتنظيم الإسلامي غايتان : الغاية الأولى ، غاية مرحلية وسيطة هدفها إقامة الحياة الطيبة وإعمار الأرض ، والغاية الثانية ، نهائية قوامها عبادة الله ونشر دينه في الأرض ، فمن أجلها خلق الإنسان والكون ، وظل ذلك هو حال التنظيم الإسلامي منذ دولة الرسول الكريم وحتى نهاية العصر العباسي الثاني إلي أن تضعضعت الدولة الإسلامية وانفرط عقدها في دويلات صغيرة هزيلة ، يسيطر عليها أبناء الشعوب التي فتحها المسلمون الأوائل ، مستهدفين تحقيق مآربهم وإحراز أهدافهم وعندئذ نجد أنفسنا أمام شكلين من التنظيم ، الأول : تنظيم بلا هدف أو غاية ، والثاني : تنظيم صاغ لنفسه أهدافاً وقتية آنية لا تتجاوز تحقيق أطماع ومآرب الولاة والعمال .

المبحث الخامس

الطابع القومي الإقليمي للتنظيم

قد نجد لزاماً علينا أن نتطرق علي استحياء وفي عجالة إلي فكرة القومية كفكرة اعترضت سياق الحضارة الإسلامية والتاريخ الإسلامي ، بوصفهما منعطفاً مهماً من منعطفات التاريخ الإنساني ، والملاحظة الأولية ذات الاعتبار هي أن فكرة القومية لم تكن أبداً فكرة محورية ذات استقلالية وكيان جديرين بالتوقف والاهتمام منذ بداية بزوغ الإسلام ، ويقف وراء هذه الوضعية أكثر من سبب :

السبب الأول :

أن الكيانات المجتمعية التي تكتلت في شكل دول وإمبراطوريات وممالك كان لها رصيد وافر من الحضارة والثقافة الخاصة ، ذابت سريعاً في كيان آخر أشمل وأعم استوعبها وأعطاها قيمتها وقدرها ، ولكن بمعيار العطاء للإسلام والتفاني من أجله .

السبب الثاني :

أن تلك الكيانات لم تستطيع مقاومة رحابة الإسلام وسماحته وما جاء به من قيم ، تدحض وتجب أية أفكار إقليمية أو عرقية ضيقة ، ومن ثم فلم يكن أمامها إلا الاندماج في الكيان الجديد ، والذي وجدت فيه شعوبها ما كانت تصبو إليه من حرية ومساواة وعدل وقيم إنسانية أخرى .

السبب الثالث :

أن الدول والشعوب التي فتحها الإسلام كانت بالفعل تمثل قوة دفع مهمة وطاقة إضافية هائلة إلي الإسلام ، واستشعر أبناء تلك الشعوب أن ما يحققه الإسلام من نصر وفتح وما

يضيفه من قوة وتمكن هو في ذات الوقت رصيد لهم ، فكانوا يعتبرون أنفسهم وبحق أصحاب هذا الدين وحاملي لواءه والمدافعين عنه والداعين إليه ، وكانت هذه الأريحية والإيثار لدى كافة الشعوب التي دخلها الإسلام دون استثناء .

السبب الرابع :

لم تكن ثمة أية ضغينة أو شعور بالتنافس والصراع بين الأجناس والأعراق التي دخلت إلي الإسلام ، بل استوى الجميع في العمل للدين الجديد ، وكان فضل كل إنسان مسلم مرهون بما يضيفه لذلك الدين ، وما يحققه للأمة الناشئة التي جبت كل أصل أو عرق أو جنس ، واستبدلت كل ذلك بالانتماء إلي الإسلام وأمة الإسلام .

السبب الخامس :

أن المسلمين الأوائل من الأصول العربية لم يكن لديهم مطلقاً أي توجه نحو تفضيل أنفسهم أو ترقية أصلهم فوق الأصول الأخرى ، ومن ثم فلم يكن هناك أي مثير أو منبه يمكن أن يوقظ الإرسابات العرقية لدى الشعوب الإسلامية المختلفة ، تلك الإرسابات التي كانت في سبات عميق بفعل نشوة الانتصار والانبهار بالدين الجديد وقيمه الأخاذة .

السبب السادس :

لقد أفرزت الشعوب الإسلامية جيلاً كاملاً من الرواد ، الذين قادوا الدولة الإسلامية في عنفوان شبابها ، وصنعوا التاريخ الإسلامي في عز مجده ، وشكلوا الحضارة الإسلامية في أبهى صورها ، وأنتجوا الثقافة والفكر الإسلامي في قمة خصبه وعطائه ، ومن ثم لم يلتفتوا أبداً إلي أصل أو عرق ، ولم ينتبهوا إلي المَن والمباهاة بما أعطوه للإسلام وما قدموا للأمة الرائدة التي هي خير أمة أخرجت للناس .

وتغيرت الأوضاع واستيقظت لدى أجيال واهية ضعيفة الإرسابات والنعرات التي كانت خاملة مستكنة لدى أبناء الشعوب الإسلامية ، وبدأ العزف علي وتر العرق والأصل ، والإشادة والمّن والمباهاة بما قدمته كل قومية إلي الإسلام ، وكان ذلك هو شأن كافة القوميات التي احتوتها واستوعبتها الأمة الإسلامية بما في ذلك القومية العربية ، وكان لهذه الوضعية المؤلمة مقدمات وحيثيات ، كانت بمثابة الأسباب والإرهاصات ، التي يمكن الحديث عنها في الآتي :

الإرهاص الأول :

أن الضعف العام الذي عانت منه الدولة الإسلامية والذي كان نتيجة نهائية للضعف السياسي والاقتصادي والعسكري شجع العمال والولاة من أبناء الشعوب الإسلامية وقوى طموحهم في الاستقلال بأقاليمهم ، ولم يكن أمام هؤلاء الطموحين من بد لشحن همة شعوبهم واستقطاب تأييدهم إلا الحديث عن الأصل والتراث الحضاري والثقافي، واستنفار مشاعر التنافس والصراع مع أبناء الأعراق الأخرى .

الإرهاص الثاني :

يرتبط بما تقدم أن ضعف الدولة الإسلامية كان فرصة مواتية اهتبلها محبو الزعامة والمتنفذون ، تحت دعوى قيادة الأمة للخروج بها من كبوتها ، وهم من أجل ذلك لجئوا عن قصد أو غير قصد إلي الحديث الدائم عن أصولهم وحضاراتهم وثقافاتهم السامية، وأنهم أحق بقيادة الأمة ، وليسوا أقل من العرب الذين قادوا الدولة الإسلامية منذ بزوغ الإسلام ، ومن ثم دبت الحساسيات بين الأعراق والأجناس ، وتحزب كل فريق وتحمس لأصله وعرقه ، وتسربت الأثرة بدل الإيثار ، وعمت الفرقة والاختلاف بدل الائتلاف .

إلا أنه في هذا الجو المعتم لم تخل الساحة من رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه ، وانبروا بصدق لقيادة الأمة الإسلامية والخروج بها من مأزقها ، وكان ذلك شأن صلاح الدين الأيوبي والظاهر بيبرس وسيف الدين قطز ، ولكن هؤلاء كانوا نوادر ، ولم يكونوا ظواهر فقضوا نحبهم علي الصدق والإخلاص .

الإرهاص الثالث :

عندما خيم علي الأمة ليل الانحلال ، وأطبق جو الإفلاس وعدم القدرة علي العطاء ، لم يكن أمام الجميع إلا الحديث عن الماضي ، من تراث حضاري وثقافي والمّن والمباهاة بما بذله الأولون للإسلام وللأمة ، وقد أثار ذلك روح التنافس والصراع بين القوميات المختلفة ، وزكى لديها روح الفردية ، والرغبة في الاستقلال بحيز معين من الأرض تحصر بداخله الخصائص الذاتية والسمات العرقية لشعوبها ، وبدأت عندئذ المزاوجة والتلاقي بين التوحد والتكتل العرقي ، بعناصره المختلفة من أصل وجنس ولغة وعادات وتقاليد وتاريخ وثقافة وحضارة ، وبين التواجد في مكان معين وبقعة بذاتها من الأرض ، وخرج من جماع هذا وذاك كيان اعتباري ذو طبيعة خاصة ، كان هو الدولة أو بتعبير أدق ومناسب لذلك الوقت " الوحدة القومية " .

كانت المحصلة النهائية لما تقدم أن استقلت كل قومية بحدود إقليمية مصطنعة ، مارست بداخلها ما يشبع رغبتها من اجترار ذكريات الماضي ، وإعادة بعض أشكال التراث الحضاري، وإحياء بعض صور الميراث الثقافي ، وظهرت الخصوصية والتفرد ، وبرزت الذاتية والتنصل ، وفي ركاب هذه المنظومة المنطلقة تجاه الاستقلال والإقليمية سار التنظيم حثيثاً في نفس الاتجاه ، ليعكس بجدية وإصرار رغبة تلك القوميات في الخروج إلي غير رجعة عن كنف الأمة الإسلامية ، ولم يعد من الممكن بحال من الأحوال الحديث عن تنظيم إسلامي ، بل أصبح من المحتم الحديث عن تنظيم إقليمي قومي .

المبحث السادس

التنظيم الغربي يجتاح مناطق العالم الإسلامي

كما سبق وأوضحنا تبلور عبر أسباب وإرهاصات معينة تنظيم يتسم بالقومية والإقليمية ، ساد كافة مناطق العالم الإسلامي ، وعندئذ كان التنظيم قد فقد قدرته بشكل نهائي علي المساهمة في العطاء لمصلحة الحضارة الإسلامية ، وإبّان هذه المرحلة مر التنظيم بتطورات مثيرة أسلمته إلي وضعه النهائي الذي هو عليه الآن ، ويمكن متابعة تلك التطورات من خلال ما يلي :

أولاً : الوضع المذبذب للتنظيم القومي الإقليمي :

بالرغم من تشكل صور معينة من التنظيم داخل مناطق العالم الإسلامي المختلفة ، التي استقلت بشكل شبه نهائي عن كنف الدولة الإسلامية ، واكتفت بالإبقاء علي نوع من الرابطة التي أخذت مسميات شتى ، بالرغم من تشكل تلك الصور للتنظيم ، وبالرغم من طغيان سمة القومية والإقليمية عليها ، إلا أنها من الناحية الفعلية كانت مذبذبة بين الطابع القومي الإقليمي والسمة الإسلامية العامة ، التي تمثل القاسم المشترك بين جميع أشكال التنظيم الإسلامي ، حتى ولو من الناحية النظرية .

وقد أثّر ذلك التذبذب بشكل بليغ علي فعالية التنظيم القومي الإقليمي ، وافقده الشخصية الخالصة المستقلة ، وانتهى به الأمر إلي افتقاده القدرة علي الاحتفاظ بهويته الإقليمية القومية، التي حاول اكتسابها بعد صراع طويل ، خسر في نهايته وجوده في كنف الإسلام ودولته .

ثانياً : إحلال التنظيم بشكله الغربي :

أضعفت كثيراً وضعية التذبذب التي كان عليها حال التنظيم القومي الإقليمي من فعالية وحركة ذلك التنظيم ، إلي أن أقعدته نهائياً في نهاية المطاف ، وكان الاتجاه نحو التنظيم بشكله الغربي عموماً الأوروبي تحديداً هو الحل الوحيد لخروج مناطق العالم الإسلامي من معضلة اهتراء التنظيم القومي الإقليمي وعجزه الكامل عن العمل والعطاء ، وقد تم إحلال التنظيم الغربي علي النحو التالي :

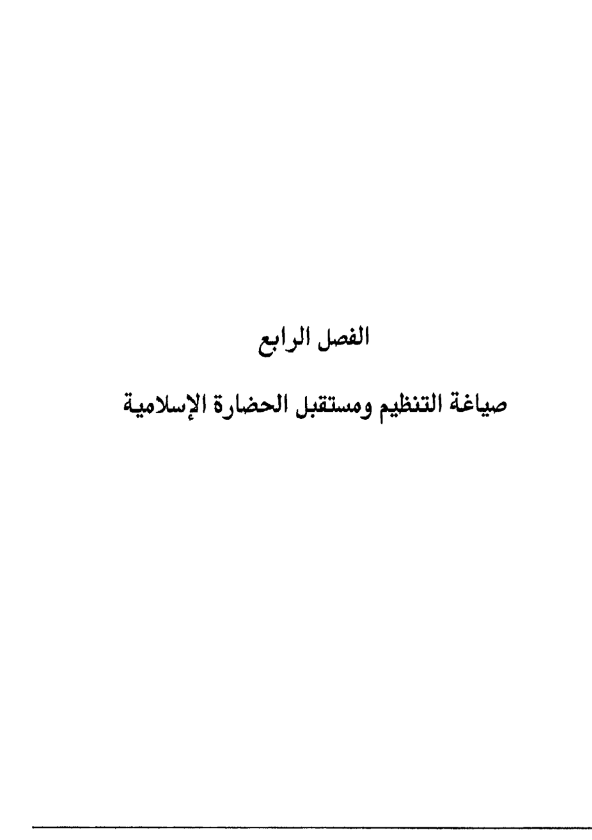
❖ كانت النتيجة المنطقية لضعف التنظيم القومي الإقليمي هي البحث عن أشكال بديلة لذلك التنظيم أو إصلاحه علي الأقل ، وكانت محاولات الإصلاح التي تكررت قد باءت جميعها بالفشل ، ومن ثم كانت تلك المجتمعات مهيأة للحديث بجدية عن استقبال أشكال جديدة من التنظيم ، تحل محل التنظيمات القومية الإقليمية .

صاحب ما تقدم وتآلف معه الحديث في شكل طروحات فكرية ، لم تلبث أن تحولت إلي سياسات وخطط للإحداث والإنماء والتجديد ، ولم يخطر ببال أحد من المفكرين والمنظرين في ذلك الزمان أن الإنماء والإحداث والتجديد ينبغي أن يوجه إلي ما لدينا نحن المسلمين من رصيد زاخر من الطرح الحضاري والثقافي وبالطبع التنظيمي ، وزاغت الأبصار وتشتتت الأفكار ، واتجهت صوب الخارج ، وأيقن الجميع أن الحل لابد أن يأتي من الخارج ، ولم تفد تلك الأصوات الهزيلة التي ارتفعت محذرة من سوء العاقبة ، فقد غلبت عليها جلبة الحديث عن الجديد ، ولغط الكلام عن الوافد المرتقب .

❖ تزامن مع ما تقدم هجمة شرسة جاءت من أوربا ، تلك القوة الناشئة التي استجمعت قوتها واستحضرت عزمها ، وأزمعت الولوج إلي فتات الدولة التي أرعبت الأوربيين بالأمس القريب ، وهنا أتيحت الفرصة لأبناء أوربا التي ظهرت في شكل دول قومية

حديثة لكي يجهزوا علي آخر ما تبقى من دولة الإسلام ، ولكي يعثوا في أرض الإسلام فساداً ، ويزرعون فيها التخلف والجهل والفقر بأسلوب ماكر خبيث ، وهو إبعاد أبناء الإسلام وإقصاؤهم قدر المستطاع عن دينهم وفي ذلك الخسران المبين .

ومع تلك الهجمة قدم الأوروبيون أشكالاً من التنظيم لا تلائم البيئة الإسلامية ، ولا تتفق مع مكوناتها وأجوائها ، ولكنها استزرعت جبراً ، فلفظتها البيئة تارة ، وقبلتها علي مضض تارة أخرى ، وانتهى الأمر باستسلام أبناء العالم الإسلامي ، وقبلوا باستيراد التنظيمات الأوربية ، وفقد التنظيم في مناطق العالم الإسلامي هويته الإسلامية ، وحتى هويته القومية الإقليمية، وانتهى به الأمر إلي أن أصبح مسخاً من التنظيم الأوربي ، وكان هذا هو واقع حال التنظيم في بلاد العالم الإسلامي !.



الفصل الرابع

صياغة التنظيم ومستقبل الحضارة الإسلامية

مرة أخرى نتحدث عن مستقبل الحضارة الإسلامية ، وربما يكون موضوع الحديث ومنطقه يحمل الكثير من الغرابة ، لأننا اعتدنا الحديث عن تاريخ الحضارة الإسلامية ، ولم نألف بعد الحديث عن مستقبل تلك الحضارة ، فهي بالنسبة لنا ماض وتراث ، ولم تكن في يوم مستقبلاً أو آتٍ .

ولكننا ندفع عن قناعة بخلاصة مؤداها أن الحضارة الإسلامية بخصوصيتها وذاتيتها وتفردها لا يمكن أن تتوقف أو تنتهي فهي نموذج للحياة كما أرادها خالق الحياة والكون ، ومن ثم فهي لابد أن تستمر وتتواصل ، ولا يعنى خفوت بريقها وفتور همتها ونشاطها بحال من الأحوال أنها توقفت أو نضب معينها ، ولكن هذا الخفوت في البريق والفتور في الهمة والنشاط إن هي إلا فترة دعة وراحة استعداداً للقفزة التالية .

إن الحضارة الإسلامية تشتمل في ذاتها علي عناصر ومقومات وجودها ونشاطها وحركتها وقدرتها الدائمة والدائبة علي الإسهام والعطاء ، وهذه المقومات وتلك العناصر في حاجة دائمة واستعداد وتهيؤ مستمر لمن يبث فيها النشاط وينفث فيها الحركة ، حتى تزدهر كما كانت ، وتينع كما أينعت ، فالحضارة الإسلامية لم تزدهر وتينع بمحض الصدفة أو بالتلقائية ، ولكنها أزهرت وأثمرت بسواعد الرجال وأدمغة المفكرين والعلماء ، فعناصرها ومقوماتها لا تزال علي أهبة الاستعداد وستظل كذلك أبد الدهر ، فلا يبقى إلا تجهيز السواعد وإعداد الأدمغة ! .

لقد جرّنا الحديث عن دور التنظيم كعنصر من عناصر الحضارة الإسلامية في مستقبل تلك الحضارة إلي الحديث عن مستقبلها إجمالاً ، ونعود أدراجنا لنبدأ حديثنا من جديد عن دور التنظيم في مستقبل الحضارة الإسلامية ، مبتدرين إياه بسؤال مفاده ، هل سيُقدّر للحضارة الإسلامية أن تفرز شكلاً خاصاً ومتفرداً من التنظيم ، يتولى مهمة إخراج الطرح الإسلامي من طور الفكر والنظر إلي واقع الفعل والحركة ؟ .

إن أبناء الإسلام في كل مكان هم بناة حضارته الآن وفي المستقبل ، ليصلوا ما انقطع ويحركوا ما توقف وينشطوا ما فتر ، والتنظيم يحتاج جهداً مضاعفاً ، يحتاج جهد المنظر رجل الفكر، ويحتاج كذلك جهد العامل رجل الحركة ، فالأول يضع الصياغة المناسبة للتنظيم الإسلامي ، والثاني يتولى وضع تلك الصياغة علي أرض الواقع ، فالأول لابد من أن يملك الجلد والتحمل علي المثابرة وعناء البحث والتنقيب والاستنباط من مصادر الإسلام الشرعية ، ثم يواصل مرة أخرى الخوض في تعقيدات وإشكاليات المواءمة بين الأصول والأسس والقواعد المستنبطة، والواقع المعاصر بمتغيراته ومستجداته ، أما الثاني فلابد من أن يملك هو الآخر جُراءة المبادرة، وشجاعة المبادأة ، وصلابة وصمود المدافع والمنافح عن الحق ، حتى يتم تثبيت أركانه في وسط يستغرب الحق ويستنكر وجوده ، ومن ثم فرجل الفكر ورجل الحركة وجود كل منهما مهم وضروري للآخر .

ولكن ماذا عن ملامح وخصائص التنظيم الإسلامي الذي ينبغي صياغة مبادئه وأسسه حتى يساهم في تشكيل وبناء الحضارة الإسلامية من جديد ؟ ، ويمكن تناول جملة المؤشرات والخطوط الخاصة بالتنظيم الإسلامي من خلال المباحث الأربعة التالية :

المبحث الأول : الأصول والأسس .

المبحث الثاني : الأدوات والآليات .

المبحث الثالث : القيم .

المبحث الرابع : الغايات والمقاصد .

المبحث الأول

الأصول والأسس

لنرتد مرة أخرى إلي الأصول والأسس التي تمثل النبع الصافي لكافة الطروحات المتعلقة بترتيب وتنظيم كافة أوجه نشاطه الإنسان في الطبيعة والمجتمع ، والحديث عن تلك الأصول والأسس يتطلب تناول ثابتين أو راسخين :

الثابت الأول :

الأصل والأساس ، وهو المصدر الشرعي الذي يمثل أساس الدين ، ومنبع التشريع الأول ، وقد أجمعت الأمة علي أن مصادر التشريع الإسلامي هي القرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة ونماذج الممارسة العملية في دولة الرسول الكريم ودولة خلفائه الراشدين .

الثابت الثاني :

هو الثابت التابع ، وهو الطرح المستمد والمستنبط من الثابت الأول ، والطرح عبارة عن القواعد والمبادئ والمعالجات ، التي تعنى بتنظيم وترتيب جميع شئون الإنسان في المجتمع الذي يعيش فيه ، وكذا في تعاملاته مع عناصر الوجود ، فالطرح إذن بمثابة ضبط وتقعيد لحركة الإنسان في الكون والمجتمع ، وهذا الضبط مأخوذ من تشريع خالق الكون والإنسان ، والطرح كذلك تعبير عن رؤية كلية متكاملة للوجود والإنسان ، ومن ثم فمن أهم خصائص هذا الطرح وشروط الأخذ به أن يتم تطبيقه بشكل كلي وشامل ، نظراً لأهمية وضرورة كل عنصر من عناصره للعناصر الأخرى ، فالطرح الإسلامي مجموعة أبعاض لابد أن تتكامل وتتكتل في كل واحد ، وإلاّ فسد الأخذ والتطبيق ، فلا يفيد العمل

ببعض الطرح دون البعض الآخر ولا يجدي الأخذ بمعظم الطرح وترك بعضه حتى ولو كان يسيراً .

الطرح الإسلامي كذلك ثابت ، يستمد ثباته ورسوخه من مصادره وأصوله – التي سبق ذكرها – تحديداً ، ويستمد كذلك منها كافة صفاتها وخصائصها ، فهو مشتق تابع تبعية مطلقة لمصدره الأصلي والأصيل .

وقد بيّنا سلفاً أن التنظيم الإسلامي في علاقته بمصادره وأصوله التشريعية قد مر بمرحلتين:

المرحلة الأولى :

حيث اعتمد التنظيم علي الأصول والأسس التشريعية بشكل مباشر، وذلك حال وجود الرسول الكريم علي رأس الدولة ، حيث كان صلي الله عليه وسلم يطبق مباشرة ما ينزل به الوحي ، ويشرّع لما لم ينزل به ، فهو المشرع الثاني بعد الحق تبارك وتعالى، وظل هذا هو الحال ، ولكن في حدود بعد انتقال الرسول الكريم إلي الرفيق الأعلى ، وبصفة خاصة في عهد خليفته أبي بكر الصديق والخليفة الراشد الثاني عمر بن الخطاب .

المرحلة الثانية :

حيث برزت بعض الصعوبات في عمليات التطبيق المباشر والأخذ التلقائي من الأصول التشريعية _ القرآن والسنة _ لأن الأوحد الذي كان يملك العلم التام بمدارك التنزيل انتقل إلي جوار ربه ، فكان لزاماً علي أبناء الأمة أن تبحث عن وسيلة أو أداة تسهل عملية التطبيق ، وكانت تلك الأداة هي اشتقاق واستنباط طروحات في كل شئون الحياة، وكانت هذه هي مهمة الراسخين في العلم ، الذين وُفقوا في الجمع بين العلم بالشريعة والعلم بأمور الحياة ، وهذا ما حدث في زمن عثمان بن عفان وعلي بن أبي طالب ، وكذا

العصر الأموي والعصر العباسي الأول وقسط كبير من العصر العباسي الثـاني ، وخلال هذه الفترات الزمنية أنتجت العقول والأدمغة الإسلامية أروع وأعظم ما أفرزته الثقافة والحضارة الإسلامية طوال عصورها منذ بزوغ فجر الإسلام .

كان التنظيم الإسلامي خلال المرحلتين المذكورتين في أوج تقدمه وازدهاره ، إذ قدم النموذج والمثال ، ونحن الآن في مسيس الحاجة إلي صياغة تنظيم يضارع ما كان عليه الحال في هاتين المرحلتين ، ومن ثم فلابد من اعتماد التنظيم علي الطروحات المستنبطة من الأصول والأسس التشريعية الإسلاميـة .

وعليه فينبغي أن يكون شغل علماء الأمة الشاغل الآن هو صياغة تنظيم يعتمد رأساً علي أصول وأسس الشرع الإسلامي ، عبر طروحات مستنبطة ومستمدة من تلك الأصول والأسس.

المبحث الثاني

الأدوات والآليـات

الأدوات والآليات هي دقائق فنية تمكن التنظيم من أداء عمله ، وهذه الدقائق الفنية هي أكثر عناصر التنظيم تماساً مع البيئة التي يعمل فيها التنظيم ، ويتعامل معها ، ويتفاعل مع مكوناتها وجزئياتها ، وإذا كان هذا هو حال ومنوال أدوات وآليات التنظيم ، فهي أكثر عناصره كذلك قابلية للتغيير والتبديل للتواؤم مع متغيرات ومستجدات المجتمع ، والتمكن من تلبية رغبات واحتياجات الناس دائمة التغير وسريعة التقلب .

وترتيباً علي ما قدمنا من صفات وخصائص الأدوات والآليات ، كان هذا العنصر من العناصر الخاصة بالتنظيم هو الذي دائماً ما يتسم بالفراغ التشريعي ، حيث لم يرد خطاب تشريعي يحدد نصاً أو يعين قالباً أو شكلاً محدداً خاصاً بالأدوات والآليات ، وما يفهم ضمناً من ذلك هو أن الأدوات والآليات قد تُركت عمداً وقصداً دون تشريع ، لكي يضع أبناء كل مجتمع وفي كل زمان ، ما يناسبهم من تلك الأدوات والآليات .

وهذه الحكمة البالغة لتوضح بجلاء اكتمال التشريع الإسلامي وإحاطته خبراً بكل دواخل ودقائق النفس البشرية ، وعلمه اللانهائي بما يصلحها ، ومن ثم فقد سكت عن تحديد المتغيرات وتعيين المستجدات ، وتركها لبنى البشر فهم أعلم بأمور دنياهم .

إن ما سبق ليمنحنا حرية الحركة لكي نبتكر من الآليات والأدوات أكثرها تقدماً ورقياً وأعظمها جدة وحداثة ، ولا مشاحة في أن نستورد من تلك الأدوات والآليات اكفأها وأقدرها علي الإنجاز ، ولكن في ذات الوقت أصلحها وأكثرها مناسبة مع واقعنا وقيمنا .

إن السكوت عن التشريع فيما يتعلق بأدوات وآليات التنظيم وإعطاء حرية الحركة لأبناء المجتمع لتخير ما يناسبهم ويلائم واقعهم ، لا يعنى بحال إطلاق العنان لاستجلاب

المفاسد واستقطاب المنغصات ، بل إن المقصد من ذلك هو تمام المصلحة وكمال الصلاح ، فينبغي أن يكون التحرك لابتكار الأدوات والآليات أو لاستيرادها مشروطاً بمراعاة المبتكر والمستورد لأسس الإسلام وأصوله وقيمه وغاياته ، التي هي في ذات الوقت أسس التنظيم وأصوله وقيمه وغاياته ومقاصده .

المبحث الثالث

القيـــــم

من أهم ما يميز التنظيم الإسلامي نسق القيم الذي يتحلى به ، وهي تمثل الضابط والكابح لكافة نشاطات وتفاعلات التنظيم ، سواء بين جزئياته وأبعاضه ، أو بينه وبين البيئة التي يعيش فيها ويتعاطى معها .

والقيم تُستمد من الأسس والأصول التشريعية الإسلامية ، وهي تتسم بأهم سمات تلك الأسس والأصول المتمثلة في الخلود والأبدية والصلاحية لتطورات ومتغيرات الزمان والمكان .

وتتدخل القيم بشكل مفيد وجيد لفرز الأدوات والآليات التي يُقدّر لرجال الحركة ابتكارها أو استيرادها ، حيث يُترك الأمر للقيم لتقول كلمتها ، ويصبح رأيها فاصلاً في التمييز بين الصالح من تلك الأدوات والآليات والطالح منها .

ويحتاج التنظيم الإسلامي المزمع صياغته كعنصر من عناصر الحضارة الإسلامية في المستقبل إلي الاهتمام بنسق القيم الذي يقوم عليه ذلك التنظيـــم ، ومرد ذلك كثرة التقلبات وديمومة المستجدات والمتغيرات ، وكل تلك الأغيار عادة ما تحمل معها الكثير من البدع والمحدثات التي تجتاح المجتمع ، وتزحف بعد ذلك علي التنظيم ، فإذا لم يملك التنظيم نسقاً من القيم يمكنه أن يتصدى لتلك العاصفات بصلابة وقوة ، فسيكون المجتمع والتنظيم الإسلامي معاً صيداً سهلاً ولقمة سائغة تتلاعب به أهواء الآخرين ورغباتهم .

المبحث الرابع

الغايات والمقاصد

منذ بزوغ فجر الإسلام والتنظيم الإسلامي يحدد لنفسه غايات ومقاصد علي درجة رفيعة من السمو والرقي ، فهو يرمى إلي تحقيق الحياة الطيبة لأبناء المجتمع الإسلامي ، ثم هو يتخذ من هذه الحياة الطيبة وسيلة وغاية لمقصد آخر نهائي هو تمكين أبناء الأمة من عبادة الله ولزوم طاعته ، حيث أن ذلك المقصد هو الذي اخبر به تبارك وتعالى علي أنه الغاية من خلق الجن والأنس معاً .

وهذه الغايات والمقاصد لا ينبغي أن يتخلى التنظيم الإسلامي عنها ، وبنفس ترتيبها من حيث الأولوية والأهمية ، لأن حركة التنظيم واتجاهه لتحقيق غاية دون أخرى يصيب تلك الحركة بالخلل ، وربما يضل الاتجاه الصحيح ، فانطلاق التنظيم نحو تعبيد أفراد المجتمع لله الواحد الأحد دون تحقيق الحياة الطيبة لهم ربما لا يحقق العبادة الخالصة الصادقة من هؤلاء وهم يعانون ويقاسون شرور الحياة ومشاقها ، كما أن الاكتفاء بتحقيق الحياة الطيبة يحوّل أفراد المجتمع إلي فئة من المترفين الماجنين الذين لا هم لهم في الحياة ولا شاغل إلا الاستمتاع بمباهجها ومتعها .

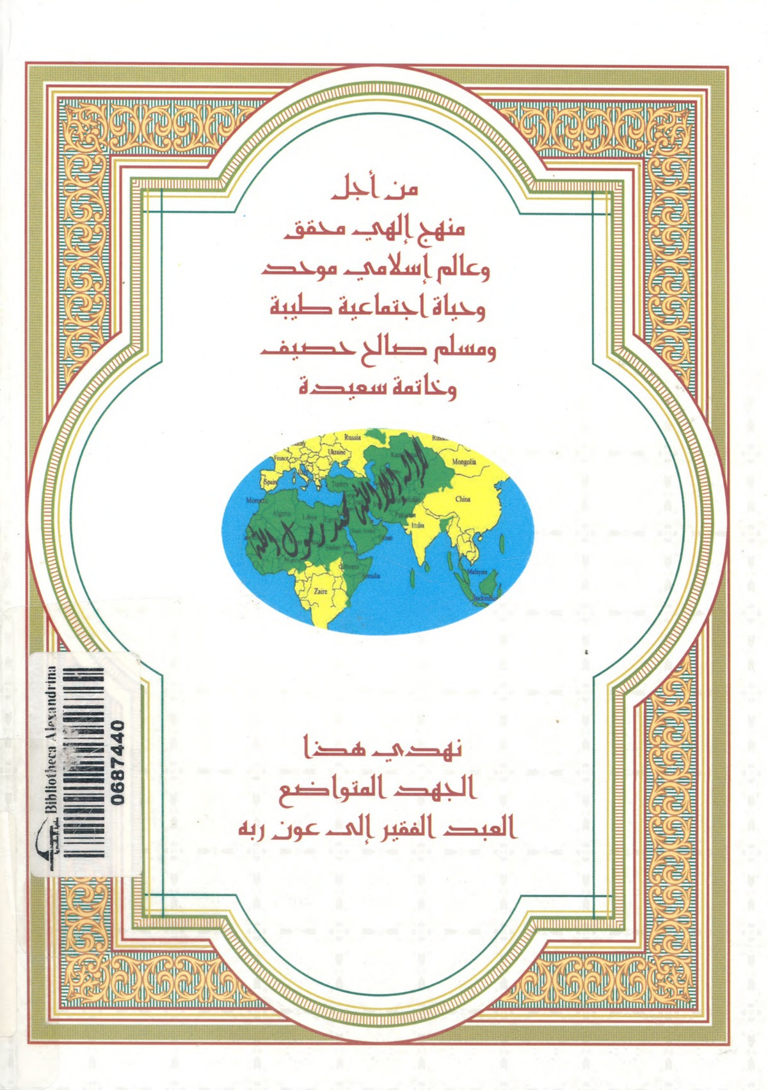
إن الرغبة الصادقة من أبناء الأمة الإسلامية في صياغة تنظيم إسلامي يساهم بقسط وافر في إحياء وبعث الحضارة الإسلامية ، واستشراف مستقبل مشرق لها ، ينبغي أن ترتكز علي يقين لا يتزعزع بأن التنظيم الإسلامي لابد له من أن تكتمل فيه كل عناصر ومقومات الوجود والعطاء بشكل نموذجي ، ويتأتى ذلك بالحفاظ علي الأصول والأسس ، وتطوير الأدوات والآليات ، والحفاظ علي القيم ، والتمسك بالغايات والمقاصد .

والله من وراء القصد



البريد الإليكتروني

ALDORAR_ALZAHERA@YAHOO.COM


من أجل
منهج إلهي محقق
وعالم إسلامي موحد
وحياة اجتماعية طيبة
ومسلم صالح حصيف
وخاتمة سعيدة
Russia
Ukraine
France
Spain
Turkey
Mongolia
China
India
Zaire
Somalia
نهدي هذا
الجهد المتواضع
العبد الفقير إلى عون ربه